

زنجبيل علما

بيارغريمال

الميتولوجيا اليونانية

ترجمة

مكري زغيب

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الميتولوجيا اليونانية

بيارغريمال

الميتولوجيا اليونانية

ترجمة

هنري زغيب

منشورات عويدات

بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France
بيروت - باريس

الطبعة الأولى ١٩٨٢

مقدمة

الأسطورة في فكر قدامى اليونان

تختصر كلمة « الميتولوجيا » اليونانية ، مجموع الروايات المدهشة والأساطير المنوعة ، التي تدل نصوصها وآثارها الباقية ، على أنها حدثت في البلدان الناطقة باليونانية ، ووقعت بين القرنين التاسع والثامن قبل المسيح ، الفترة التي نقلتها إلينا الأشعار الهوميرية المكتوبة في القرن الثالث أو الرابع بعد المسيح . وفي ذلك المجموع ، مادة ضخمة ، صعبة التحديد ، متنوعة الأصول والكتابات ، لعبت في التاريخ الروحاني للعالم ، وما تزال تلعب دوراً غير عادي .

جميع الشعوب ، في مرحلة من تطورها ، حاكت لنفسها أساطير ، أي روايات مدهشة أضافت إليها ، الى حدّ ، بعضاً من إيمانها ، لتصدقها أكثر . والأساطير غالباً ، لأنها تُدخل فيها قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر ، تدخل في نطاق الدين . فتبدو ، عندها ، نظاماً شبه متماسك لتفسير الكون ، على لسان كل من الأبطال الذين تروى رواياتهم ، يكون خالقاً لها ، وسبباً في نتائج يهتر لها الكون كله .

الى نموذج كهذا ، تنتمي كبرى القصائد الملحمية الدينية في الأدب الهندي ، بينما في البلدان الأخرى ، يطفئ العنصر الملحمي وحده . طبعاً ،

لا يغيب الآلهة عن النص ، حيث فعاليتهم قوية ، انما تكوين العالم ليس مطروحاً بالحجم الكبير . فالبطل يكتفي بتسديد ضربات قوية من سيفه ، وبإخلاق أحياء قوية ، والقيام برحلات الى بلدان مدهلة ، واذا ما تخطى المقياس الإنساني ، يبقى من جوهر الإنسانية نفسها .

الى نموذج كهذا ، تنتمي ، خاصة ، الدورات الأسطورية لدى السلتيين والتي نعرفها من الروايات الغالية .

وفي مواضع أخرى كذلك ، آلت روايات الأسطورة الى فقدانها كل طابع مدهش ، وإلى ذوبانها في مظاهر التاريخ . فالرومان ، في شكل خاص ، يبدو أنهم أدخلوا ، هكذا ، في أقدم تواريتهم ، تحركات أسطورية حقيقية : فبطولة هوراتيوس كوكليس ^(١) المدافع عن جسر التيبر ضد المجتاحين ، ليس - كما يقال - سوى آخر مسخ لشيطان أعور ، كان لتمثاله - على ضفاف النهر - ان يفقد معناه الأساسي ، ويتحول مقاطع حول المعارك بين الرومان والأثوريين (غربي ايطاليا) .

الأسطورة ، في اليونان ، تساهم في جميع هذه النماذج ، فهي حيناً تتخذ لون التاريخ ، فتحمل طابع النبيل في المدن أو السلالات ، وحيناً آخر تسهم في دعم أو تفسير المعتقدات الدينية . وليست غريبة عنها ، أية واحدة من الظروف التي تحيط بالأسطورة عامة ، لكن لها مدلولاً آخر . فكلمة « أسطورة » ، بالمعنى الحرفي اليوناني ، تنطبق على كل حكاية تروى . سواء كانت موضوع تراجيديا أو عقدة كوميديا أو قصة خرافة من ايزوب . ان كلمة « أسطورة » تعارض كلمة « العقل » (« لوجوس »

(١) سنعتمد ، في ترجمتنا الأسماء ، اللفظ الفرنسي (المترجم)

اليونانية) ، كما كلمة خيال تعارض كلمة منطق ، أو كما الكلمة التي تروي ، تعارض الكلمة التي تبرهن ، من هنا ، ان كلمتي « لوعوس » (العقل) ، و « ميتوس » (ما يتنافى والعقل) ، هما نصفاً اللغة ، وهما وظيفتان أساسيتان (« ميتوس » و « لوعوس » = ميتولوجيا) من حياة الفكر . وكلمة « لوعوس » ، إذ هي استدلال برهاني ، تهتم بالإقناع ، وتجعل عند سامعها حاجة تحججه بحكم منطقي . اذن ، يكون الـ « لوعوس » صحيحاً ، اذا كان قوياً ومطابقاً للمنطق . ويكون خاطئاً اذا كان يخفي بعض المكر الخفي (فيصبح « سفسطة » أي مغالطة منطقية) . لكن « الأسطورة » لا غاية لها الا في ذاتها . نصدقها أو لا بإيمان لدينا ، اذا وجدناها « جميلة » أو واقعية ، أو اذا أحببنا تصديقها . بهذا ، تجذب الأسطورة حولها كل حصة اللامعقول في الفكر البشري : من هنا ، قربتها ، من حيث طبيعتها ، مع الفن في جميع ابداعاته . وهنا ربما ، الطابع الأخاذ في الاسطورة اليونانية : دخلت في جميع نشاطات الفكر . ومن هنا ، يعاد اليها في جميع قطاعات الحضارة اليونانية ، من فن وأدب . فالأسطورة ، عند اليوناني ، لا تعرف حدوداً ، بل تدخل في ايما كان ، وهي ضرورية لفكره كما الهواء والشمس لحياته .

أقدم ملحمتين معروفتين اليوم في اللغة اليونانية ، وهما « الإلياذة » و « الأوديسيه » ، صارتا من « الأساطير » ، في المعنى الواسع للكلمة ، اذ فيهما مزيج متلاحم من البشري والفسوق البشري . فأبطال « الإلياذة » ، أسلافهم ، بل أهلهم ، من الآلهة ، وسلالاتهم من العائلات التاريخية العريقة : أشيل ، هو إين تيتيسر . الهة البحر ، وقدره محتم بوحى إلهي منذ الأزل وإلى الأبد . وهذه هيلين ، رهان حرب طروادة ، هي إينة زوس ،

وتشاء إرادة أفروديت الهة الحب أن تدفعها الى ترك زوجها وإينتها حين جاء باريس الطروادي يلقاها في سبارطة . وفي المعسكرين معاً ، يشترك الآلهة والالهات في المعارك : أبولون حامي باريس ، مهاجماً بشخص أحد كهنته الذي خطف إينته الآسيون ، يزرع الطاعون في صفوف جيشهم . عندها بوزييدون وأتينا وأريس يتدخلون في الصراع . وتشهد مآثر آشيل على أهمية البطل الشخصية ، وكذلك على الحماية الألهية التي لا تتخلى مطلقاً عنه .

والأمر كذلك في « الأوديسي » . فالنسب الالهي لأوليس ، وإن كان أقل رسوخاً - ثمة حوله عدة أقاويل بينها انه الابن الحرام لأوتوليكوس ابن هرمس - لكن الآلهة اتينا تبقى هي حاميته ، وهي التي تنقذه من غضب بوزييدون ، اله البحر ، وحقده .

والملمحة اليونانية ، من جوهرها تمجيد صراعات البشر ، وتعظيمهم ، من خلال الأسطورة ، الى مستوى الكون . ورواياتها ، في حرفيتها ، تشهد على إيمان ديني عميق : فهذا زوس وآلهة الأولمب يتدخلون مادياً في الشؤون البشرية ، فيمنحون البشر عطاءات ، ويهدثون أحاسيسهم ، ويسترضون خواطرهم . لكن تمثيل الأسطورة نفسه ، ينهد الى تجاوز هذه المادية الضيقة . فحين زوس يزن ، في ميزان كبير ، أقدار آشيل وباتروكل اللذين يتبارزان في اقتتال فردي تحت أسوار طروادة ، يصعب تصديق أن يونان العصر الكلاسيكي كانوا يؤمنون بصورة هذا الميزان الكبير الذي تصل كفة منه الى السماء فيما الكفة الأخرى تغرق في ظلمات الجحيم . يصعب ذلك ، حتى ولو اعتقد آشيل ، في مسرحية له فُقدت ، انه يمكنه حسياً ، تمثيل تلك الكفة المرجحة لوزن النفوس .

الأسطورة ، ليست مضغوطة في تعابيرها . فهي ترسم صورة ، أو رمزاً ، لحقيقة لا توصف الا هكذا . وقد يجوز أن هذا ، في نظر الشاعر ، أسلوبٌ تعبير ، من خلال مقطع شعري ، أو شكلٌ إيجاز يساعد على فهم سر الكون ، دون أن يؤخذ على حرفيته الضيقة .

بالطريقة نفسها ، كانت المعابد المرفوعة الى الآلهة ، تقدّم ، على مدخلها ، مقطعاً مميزاً حول أسطورة الإله أو الآلهة ، صاحب أو صاحبة المعبد . فعلى المدخل الشرقي من البارتنون مقطع حول مولد أتينسا العجائبي ؛ وعلى المدخل الغربي ، حول صراع بوزيديدون وأتينسا وكل منهما يطالب بامتلاك التراث اليوناني . هذه الصور ، تجسّد - بشكل عام وأفضل مما يستطيعه أي تصوير بالكلمات - شعور الاثينيين بمدينتهم وبأنفسهم : ف « أتينسا » المولودة من رأس المعلم الأكبر ، دون والدة ، هي تماماً كما الشعب الأتيكي الذي « خرج من الأرض » ، لكنها ، هي حصيلة اتحاد والدها بالحكمة (ميتيس) ذات يوم . من هنا أن ديميتيه وكوريه ، والأرض والنبات ، ينتظرون اعلان الولادة العجائبية . ولن تلبث الآلهة ، على أرض تغمرها عطايا البحر ويللها الملح ويلفّها الهواء البحري من بوزيديدون ، أن تُنبِت الزيتون ، وهو - بين الأشجار - الأكثر بطقاً وحكمة وإشعاعاً . وأسطورة أتينسا ، وإن لم نعد نؤمن بحقيقتها الحرفية ، تبقى ذات تأملات لا نهائية ، وتبقى كما نهدة لم تحب قوتها ، ولو بعد عصور طويلة .

والأسطورة ، إجمالاً ، اذ هي من غبأ الفكر ، آلت الى حياة لها خاصة ، في وسط المسافة بين العقل والإيمان . ومنها تنبع جميع تأملات اليونان ، ومن بعدهم تأملات أحفادهم . ومن الأسطورة ، استمد الشعراء المسرحيون

مواضيعهم ، والشعراء الغنائيون صورهم وخيالاتهم . من هنا ، أن بروميتيه وأوديب وأورست كانوا ، في الأساس ، أبطالاً أسطوريين . ومن هنا أننا وجدنا صور أشيل وأوليس وجنون أجاكس ، محفورة على أباريق وكؤوس وأوعية مختلفة ، مما مزج الأسطورة بالحياة اليومية فصارتا متلازمتين . وصارت هذه الصور ، في البيت كما في المسرح ، رفيقة مطبوعة في الذاكرة ، تحتل مكانها في المخيلة والصدارة في المفاهيم الخلقية .

حتى الفلاسفة ، حين بلغ المنطق ذروته ، لجأوا الى الأسطورة كما الى نبع معرفة يكتشف المجهول . فإذا أفلاطون ، في « فيدون » و « فيدر » و « المأدبة » و « الجمهورية » ، يمتد بفلسفته حتى جذور أساطير كان هو يخترعها .

لذا يعتبر المؤرخون ان إنتشار الأسطورة والانفلات في تخيلها واختراعها ، كانا الركيزة الأساسية التي حملتها الحضارة اليونانية القديمة الى الفكر البشري . وبفضل هذه الحضارة ، سقط الرعب عن كل ما هو « مقدس » ، وانفتحت بقعة مهمة من الذات الإنسانية فصارت مباحة للدرس والتأمل .

وبفضلها كذلك ، اكتسب الشعر نفحة الحكمة .

الفصل الأول

الأساطير والميتولوجيا

إنّ الأدباء وقدامى العلماء الذين استخدموا المعطيات الأسطورية ، أو جمعوها لذاتها ، لا يمكن لعملهم ان يخفى التنوع المدهش ، بل التفكك الذي تمثله هذه المعطيات .

صحيح ان هوميرو وهيزيودو وبندار وإشيل يوحون بإرتباطهم بنظام أسطوري محدد واضح ، للآلهة فيه والأبطال طابع دامج لا يتغير من أسطورة الى أخرى ، لكن هذه ، تصورات خاطئة ، ناجمة عن كون هؤلاء الشعراء (إلّا هيزيودو صاحب « التيوغونيا » - نسب الآلهة) ، يمارسون الايهام ، ولا يعرضون ، تعليمياً تقنياً ، السلالات الإلهية أو الروايات التي يستشهدون بها . انما ، حتى في هذه الظروف ، يكفي تحليل دقيق لإيضاح الفوارق والتناقضات بين الأدباء ، أو حتى لدى الأديب الواحد نفسه . فالوحدة لم تدخل الا في شكل ثانوي واصطناعي . والأساطير لا تولد مجموعة منظمة ، كما نظام فلسفي أو لاهوتي أو علمي . انها تنبت من الصدفة ، كما النباتات ، وعلى الباحث فيها ان يجد لها نسباً وسلالات وأنواعاً واختلافات .

فحول نقطة أساسية ، ظاهراً ، كولادة زوس كبير الآلهة ، ثمة روايات مختلفة . أشهرها تجعله ولد على قمة « إيدا » في جزيرة كريت . انما ، في

الجزيرة نفسها ، كانت قمة ديكته تطالب بالشرف نفسه ، وكان ، غربي بيلوبونيز غير بعيد عن ميسينا ، نبع يسمى كليبيدير ، يقال ان حده وُكِدَ الطفل الإلهي .

وثمة معابد كثيرة وخرافات مختلفة ، لم تصبح متناقضة ، إلا يوم أُعلِنَ عن زوس الكريتي ، شيطان إيدا أوديكتيه ، وزوس المسيني من قمة ايتوم . والتناقض هنا موجود داخل الميتولوجيا اليونانية نفسها . لكن تركيب هكذا ميتولوجيا ، ليس بدائياً ، بل هو ناجم عن إنطباع مسبق حول الأسطورة وتركيبها .

أحياناً ، تصادفنا صعوبات يصعب حلُّها ، متأنة من كون الأسطورة تمت في أزمنة وحالات إجتماعية أو تاريخية مختلفة . فسلالات الأتريديين يحدّثوننا عن أسيايد ميسان ، وأسياد تيرنت وأسياد أرغوس ، وثمة صعوبة قصوى في التمييز بين هذه الممالك . ويتضح كل لبس ، حين نعرف أن تطور تيرنت وميسان ، ليس معاصراً لتطور أرغوس . والأسطورة المحلية في ميسان ، التي كانت تجعل « ملك » البلاد يتدخل ، تصير مفرغة من معناها في الفترة التي لم تعد فيها السلطة في ميسان بل في أرغوس . والكاتب ، كان ، عفواً ، ينقل أحداثه ، لكن عناصر محلية بحتة ، كانت تبقى ، وتجبر إلى اللبس . وهذا هو ما جرى لمجموعة من الخرافات التيسالية ذات الأصناء في بيلوبونيز . فهذه كورونيس ، حبيبة أبولون والدة اسليبيوس اله الطب ، تُذكر على أنها ابنة فليجياس التيسالي . لكن معلومات أخرى ، من الزمن نفسه ، تقول أن فليجياس كان في الحقيقة من سكان أبيدور في بيلوبونيز ، مما يفسر أن عبادة اسليبيوس أزهرت في أبيدور . وهذه التناقضات ، تعكس في الواقع زمناً كان فيه الشعب نفسه يمتد من تيساليا إلى أبيدور ، (أو أنه هاجر من تيساليا إلى بيلوبونيز) قبل أن تغمره

جحافل المجتاحين الذين نزعوا منه شعور الوحدة المتأسكة . لكن هذه الوحدة لم تعد حية إلا في نطاق الأساطير وأسماء الأماكن . ومقابل تشابه فليجياس الأبيدوري وفليجياس التيسالي ، يقوم تشابه لاريسا المدينة التيسالية ولاريسا المواطنة في أرغوس .

واضح ، من هنا ، ان الأسطورة ليست واقعاً مستقلاً ، لكنها تتطور مع الظروف التاريخية والالتية ، وأحياناً تحافظ على شهادات غير متوقعة حول حالات منسية ودول زائلة . هنا ، تبدو الأسطورة وسيلة تقصُّ ثمينة ، وهي - اذا تخلينا عن منطق ما قبل عصر أوثين من ان الأسطورة دائماً تحوير للتاريخ - تبقى اليوم موضوع سؤالنا لها عما تحفظ عن المكان والزمان اللذين نبتت فيهما . وعلماء الميثولوجيا المعاصرون ، أكثر رهافة من أسلافهم القدماء ، تجاه التغير . انهم يتحدى بعضهم بعضاً حول أساطير صارت متكاملة ، وترابطها يفضح التفاصيل التي قد تظراً عليها مع الزمن .

إنّ العمل على الأساطير ، بدأ منذ زمن بعيد ، والذي نقطفه غالباً من النصوص ، ليس سوى حصيلة تطور طويل . هكذا ، إجمالاً ، « المنابع » الكلاسيكية للميثولوجيا . ومنذ أواخر القرن السادس قبل المسيح ، كان هيئاته كتب أربعة كتب حول السلالات ، لم يصلنا منها جميعها الا بعض الفقرات ، لكن عقيدته ومبادئه انتقلت الى أحفاده واتباعه ، وهي طاغية على نظريات المؤرخين القدامى ، اكوزيلاوس الأرغوسي وفيرسيد الاثيني وسواهم ، من الذين جمعوا الأساطير ، فكتبوا بها أول صفحة من التاريخ الوطني .

ويبدو أن فيريسيديس هو أول من ألقى الضوء على الأساطير ذات الجذور
الاتيكية (الأثينية) ، وأول من أقام لائحة « شرعية » للملوك البلدان ، جمع
فيها شياطين حقيقيين (ايرينونيوس وصنوه ايرينيني) وشخصيات تاريخية
حقيقية . لكنه لم يكتف بتقاليد بلاده ، فأدخل معها أساطير أرجية كانت
أساسية لمعرفة « العصور الوسطى » اليونانية . إزاء هذا ، يكون فيريسيديس
سابقاً لكاتب كبير الأهمية ، هو هيلانيكوس ده ميتيلين ، الذي أهتم
بالوقائع والأخبار الأرجية ، وتمكن في كتابه « تاريخ كاهنات هيرا » (وهي
كبيرة آلهات أرغوس) من جمع تقاليد مقدسة مهمة ضاع أكثرها اليوم .
وهيلانيكوس أول من سمى روما بهذا الاسم ، معتبراً إياها مدينة يونانية
تأسست بعد التبعثر الذي تلا عودة منتصري طروادة . والنزعة الأساسية في
كل هذه الأعمال والمجموعات ، بين القرنين السادس والخامس قبل
المسيح ، كانت الرغبة في تحديد « تاريخ » للأحداث ، تاريخي
وأسطوري . ولم يتوضح التمييز بين « التاريخين » ، وهو تمييز معاصر غير
محدد في وضوح ، لأن الأسطورة قد تكون تفسيراً للتاريخ ولا معياراً مطلقاً
في التمييز بين التاريخين . وترتيب الأحداث يبقى مؤقتاً ، إذ الأهم إزاء
نقاط ثابتة في التاريخ ، تحديد تلازمات مفترض أنها معروفة ، كما سقوط
طروادة أو تأسيس الألعاب الأولمبية . والإطار الأكثر تبنياً في هذا ، هو
الذي يحدد « الأجيال » ، ومن خلالها الأحداث والأشخاص . لكن ثمة
صعوبات في هذا . فمغامرات هيراكليس التي تجري في كون نعتقده خالياً
(اذ الأسطورة ، في شكلها الأقدم ، لا تذكر لقاء هيراكليس ، مع أي من
الابطال الآخرين) تطرح مسائل توافق دقيقة لأن التقاليد تتحدث عن
أولاد هيراكليس ، وتجعلهم ملتزمين ، في غير موقعة ، مع أولاد تيزيه .
فكيف يمكن لتيزيه والبطل الأرجي الكبير ألا يكونا التقيا ؟ ان البراعة

اليونانية ليست قط غاية ، وتم تفسير ذلك بأن أعمال تيزيه جرت في أثناء أسر هيراكليس في ليديا ، مع أونفال ، وبأن تيزيه - طوال الحقبة الأخيرة من حياة هيراكليس - كان موجوداً في الجحيم ، أسيراً لدى بلوتون . لذا ، ثمة مقاطع مدموسة ، داخل السير الأسطورية ، وهي ليست مقاطع بدائية ، بل موضوعة لتحقيق التوافقات التاريخية الضرورية . وتلك الأجيال ، غالباً ما تكون من الأصناء الواجب تفريقها لتجنب التعمير الطويل المستحيل . والعمر الطويل لنستور ، أحد المحاربين مع الأكين ضد طروادة ، تفسيره ان نستور ثانوي جداً في حلقة هيراكليس وهو اذ كان بعد طفلاً ، حين كان هيراكليس يحارب نيليه وأولاده في بيلوس (من أعمال ميسينيا) ، بات من الضروري بقاءه حياً حين الغزوة الآكية : لذا اعطيت له سنوات ثلاثة أجيال من الناس ، حتى عمّر الى شيخوخة كثيرة ، وصار مسموع الرأي ، وذا صورة تقليدية تغذي صور الخيال . . .

بهذا ، كان التاريخ خلاقاً ، وهكذا كانت تولد المقاطع المسماة مدموسة .

مع بداية العهد الكلاسيكي ، تركزت الأطر الكبرى للأساطير ، وبقيت فيها تشوشات عديدة . واعتبر المؤرخون ان تاريخ الأزمنة الخرافية بات ثابتاً ، وراحوا يغوصون على التعمق فيه . وبدءاً من القرن الثالث قبل المسيح ، ظهرت « المجموعات » ، التي بقي لنا قسم منها يحمل اسم صاحبتها . بعضها كان مخصصاً لنمط معين من الأساطير . مثلاً : إيراتوستين السيريني ، في النصف الثاني من القرن الثالث (ق.م) وضع كتاب « التحولات إلى كواكب » ، جمع فيه جميع النماذج المعروفة للروايات التي كان فيها البطل أو البطلة ، لدى نهاية القصة ، موضوعاً (أو

موضوعة) في مصاف الكواكب . وظلت هذه العادة متبعة طوال العصور القديمة ، فكان لدينا منها كتب في مغامرات الحب (منها كتاب بارثينيوس أديب نيسيه ، ومعاصر فيرجيل) . وكتب أخرى في الهياولات (نيكاندر اليوناني ، من ق ٢ ق . م . كان النموذج المباشر للقصيدة الطويلة التي وضعها أوفيد في عنوان « الهياولات » زمن أوغست) . لكن الباحثين في الميتولوجيا كانوا يتوغلون أكثر ، ليصلوا من خلال ذلك الى جمع كامل للتقاليد الأسطورية . وأهم المحاولات في هذا الموضوع ، كتاب ابولودور المعروف : « المكتبة » . وأبولودور كان غراماطيقياً وفيلولوجياً أثينياً من ق . ٢ ق . م . ، خصص حياته لتفسير الشعراء القدامى . وكتابه ، كما وصل إلينا ، بقية ما نجا منذ القرن المسيحي الأول . وفيه ميتولوجيا منظمة ، بدءاً من خلق الأشياء والآلهة ، وانحداراً ، مع الأجيال ، الى آخر مراحل الأسطورة ، اي الى الفترة التي تلت سقوط طروادة . ولم تعد الميتولوجيا إلا « جثة مطيبة » ، ومادة كتيبة مفصولة عن منابعها الحية .

والى جانب المجموعات الشرعية الكبرى التي هدفها الأساسي إدخال وحدة مفتعلة ومميتة الى النصوص ، ثمة منابع أخرى ، وأعمال مكتوبة في ذهنية معاكسة تماماً ، وأكثر مطابقة للإهتمامات المعاصرة . أبرز الباقي : « وصف اليونان » لبوزانياس ، الذي حافظ على ذكرى عدد كبير من الأساطير المحلية ، مفرغة من التحليلات الكبرى ، وتكون روايات نادرة ما زالت مروية في التراث الشعبي . ولكن كتاب بوزانياس ، كما وصل إلينا ، لا يغطي كامل البلاد اليونانية ، لذا ما زلنا نجهل بعض المناطق منها . ولا نسد هذا الفراغ في المعلومات ، الا من شتات المعلقين على قصائد الشعراء ، وهو منشور في حواشي الناشرين القدامى للمؤلفات

الكلاسيكية . وهذا العمل المكتبي المضني ، تم على القصائد الهوميرية واستمر الى ما بعد نهاية الوثنية . والعالمان البيزنطيان يوهانس واسحق سبتيسيس ، تركا لنا سرد وقائع تعود الى عمق العصور القديمة .

هي هذه ، في مجملها ، الميتولوجيا اليونانية : مادة ذات منابع شديدة التنوع ، ومقاطع غالباً سيئة الجمع والترابط ، أضاف اليها عمل العلماء والكتاب والشعراء أو حذف منها قطعاً وفق أهواء الدارسين ، لكن فيها بعد ، المعطيات الاولى للمخيلة والتقوى الشعبيتين . من هنا ، فيها ، امتزاج العلم والعفوية ، والحلي والمصطنع . ومن شرف العلم الحديث بدؤه بتحليل شامل ، يساعد على فهم غمط من التفكير كان ضرورياً للفكر الإنساني .

وإذا أخذنا الميتولوجيا « الكلاسيكية » ، لا في تكوينها وتطورها بل في كليتها الثابتة ، وفي شكلها « الشرعي » ، نجد الأساطير التي تقدمها لنا ، ليست ذات شكل واحد ولا يحمل واحد . فبعضها مجموع قصص حول تكوين العالم و« ولادة » الآلهة . ولهذا القسم تصح تسمية « أساطير » في معناها الحرفي . وهي ما سنسميه الأساطير التيوغونية (المتعلقة بنسب الآلهة) ، أو الكوسموغونية (المتعلقة بنشأة الكون) . وهذه النصوص ، جمعها هيزيود ، وهي قديمة قبله ، بعضها يوناني المنبع ، وبعضها الآخر من الديانات الشرقية قبل اليونانية القديمة . مع هذا ، من الخطأ اعتبارها معطيات أولية ، إذ هي غالباً متطورة ، تكونت في الأوساط الكهنوتية ، وراحت تعنى تدريجياً بالعناصر الفلسفية ، في إطار رموز غير شديدة الشرح . وهذه الأساطير بقيت حتى في العصور الكلاسيكية ، وبعدها ، وبقيت عوناً للمعتقدات الدينية ، وبقيت - أخيراً - جزءاً أساسياً من

الديانات الداعية الى الخلاص والسعادة الأبدية .

إلى جانب هذه الأساطير ، ثمة « دورات » بطولية والهيبة ، تشكل سلسلة مقاطع من قصائد تاريخية أو قصص تستمد وحدتها من هوية الشخص الذي هو بطلها . وعلى اختلاف الأساطير ، لا تملك هذه القصص أي تفسير كوني . فعندما هيراكليس يحمل السماء على كتفيه ، لا يثبت في هذا الاقوته الجسدية ، ولا يطبع ، به ، السماء ولا الكون . بعدها ، ما هم أن يكون بطل هذه القصص الهأ (هرمس ، أفروديت ، أو زوس نفسه) أم انساناً مائتاً ، أم نصف إله . فكل أسطورة تتناسب والوهة ، لا تعود تحمل معنى لاهوتياً . وهذا هرمس يسرق الثيران ويشدها من أذناها ليتجنب آثارها على الأرض . وهو هنا ، موضوع شعبي معروف لا يمثل أي معنى ديني خاص .

الطابع الأساسي للدورة ، هو تجزيئها . فهي لا تولد كاملة ، بل هي حصيلة تطور طويل ، في خلاله تتراكم مقاطع مستقلة بدائياً ، ثم تتحد ، كما ، مثلاً ، مغامرات هيراكليس التي لا رابط بينها . من هنا أن كلاً من الأعمال الكبرى ، مرتبط بموقع أو معبد ، وليس ثابتاً أن بطلها هو دائماً هيراكليس ، رغم ما ورد في تلك النصوص . فالأسد الذي قتله الكاتوس خدمة للملك ميغاريه ، يذكر بأسد سيثرون الذي قتله هيراكليس لينقذ منه الملك تسبيوس . والمعطى ، هكذا ، معقول لدى المدلول الغربي الحديث للدورة الهيراكلية : فالسياح اليونان وبعدهم الرومان ، عرفوا هيراكليس في المدن الإيطالية فالغالية فتخوم جرمانيا . إذن ، فلعبة التواصل مع الألوهة الأهلية ، دخلت الى دورة العناصر التي كانت ، قبلاً ، غريبة عنها . وصار هيراكليس اليوناني نفسه ميزات من الساميين (غلفاش أو ملكارات) أو من آهة آخرين اندثر اليوم ذكرهم .

النموذج الثالث للرواية الأسطورية (بعد « الأسطورة » و « الدورة ») معروف تحت إسم « الأحداث » . وكما النموذج السابق تحدده أماكن معينة ، وهو لا يتلبس قيمة كونية أو رمزية ، إنما ، في حين الدورة تدور حول وجه واحد لبطل واحد ، تدور وحدة « الأحداث » في إطار أدبي يتمحور حول ما يسمى العقلة . من هنا ، تصير حرب طروادة ، لا دورة هيلين ولا دورة آشيل ولا دورة البرياميديين ، بل قصة مغامرة طويلة ، متشابكة المقاطع متعددة الشخصيات . والقصيدة الهوميرية الطويلة التي تحمل إسم « الإلياذة » ، لا تفصل إلا جزءاً بسيطاً من تلك القصة ، وهو الذي يدور حول غضب آشيل ، أما الباقي فلا ذكر له إلا تلميحاً : أي حول العشر السنوات من الأسر ، وغزو المدن الآسيوية ، والحملة التي فشلت مرة أولى ، والإبحار اليائس من ميزيا ، والحملة الثانية ، والرياح الغاضبة التي لا تهدئها إلا التضحية بصنية بتول ، ثم ، بعد موت هكتور ، حملة آشيل وباريس ، ثم السيطرة على المدينة ، وأخيراً صراع النبوءات فصراع العرافين . وهذا كله ، يتخطى إطار الأثر الأدبي . وليس ثابِتاً أن كلاً من هذه المقاطع كان موضوع قصيدة ملحمة خاصة . و « حرب طروادة » ، موضوع حر ، أضيف إليه تطويل وتوابع ، في زخرفة تأليفية . اننا ، معها في نصف المسافة بين الأسطورة والخلق الأدبي . مع هذا ، ثمة فرق أساسي بين الأحداث الخرافية ، وخرافة روائي أو شاعر : اذ مرّ وقت كانت مغامرة هيلين معتبرة فيه حقيقة . مع أن أبطال الرواية لم يتلقوا قط مظاهر عبادة . لكن هيلين ، كما المعروف ، إلهة « ساقطة » ، إلهة خيالية متعلقة حتماً بديانة الشعوب الماقبل اليونانية في بيلوبونيز . من هنا وجود «قبر هيلين» ، و«قبر مينيلاس» ، و«قبر آشيل» حيث ضحّى الإسكندر ذات يوم . وفي نظر اليونان ، كل هذه روايات حقيقية ، وإن كان خيال

الشعراء زخرفها بتزويق أدبي . فأبطال الأحداث الخرافية قد ينتمون الى جميع الفتنزيات ، دون أن يصطبغوا بها مهما كان الأثر الأدبي الذي يضمهم .

أخيراً ، وإذا تعمقنا بعد في التحليل ، ما نلاحظه ليس مجموعاً خرافياً ، بل مجرد روايات « أولية » ، وأخبار قصيرة تبريرية ، أي تفسر تفصيلاً مدهشاً من الواقع : انحرافاً في طقس ديني ، أو تقليداً أو شكلاً خاصاً لصخرة ، أو تناغماً في اسم علم . من هنا ما وجده الباحثون في أحد هياكل قبرص ، وهو تمثال امرأة منحنية الى الأمام ، شهادة على طقس منسي ، ممثلة سحر الخصب . ولتبرير هذا الوضع غير المألوف للتمثال ، فسّر الخبراء ذلك أنه جسم انقلب حجراً لجسد فتاة صعقتها الآلهة وهي تنظر من النافذة ، وحول ذلك ، نسجوا قصة حب - وهي هذه - أسطورة أناكساريتيه التي قتلت قسوتها حبيبها ، ولم تعد لديها رغبة إلا أن ترى ، من النافذة ، موكب جنازته ، وانقلب قلبها صخوراً ، فصارت تمثال حجر ، وضع في هيكل أفروديت وصار خالداً .

ثمة غيرها ، روايات مشابهة حول أسياء الأماكن ، وجميعها مبنية حول اللعب باصل اشتقاق الكلمة . والخيال الشعبي لم يخترع قط ما يفسرها . من هنا ان التنوع في أسياء السواقي - وهي ظاهرة يعرفها الجغرافيون من أن كل مجرى ماء يحتمل عدة تسميات ، حسب السكان الذين حوله - خلق تنوعاً في مادة الكتابة . وكذلك رسوم الكواكب ، وسير كوكب ، يُلقي عليها حب أو حقد يستمد جذوره من مغامرة جرت لأشخاص انقلبوا الى كواكب بعد تلك المغامرة .

إذن ، فالمادة الأسطورية تتصنف في عدد من الفئات التي تسهل التحليل . إنما يجب الحذر من الوقوع في متاهة التصنيف . فالأسطورة

الكوسموغونية (المتعلقة بنشأة الكون) قد تنحدر الى دورة أو أحدى .
والأسطورة التبريرية قد تدخل في الدورة أو الأحدى في سهولة تامة ،
فالخرافة نفسها ، يمكنها - حسب تزويق الكاتب أو التزاماته الروحية - ان
تتخذ طابع رواية أو طابع إيجاء صوفي . وهذه الطواعية في الأسطورة
متلازمة وطبيعتها : فهي ليست طابعاً مكتسباً في ما بعد ، بل ميزة أساسية
للأسطورة ، حية منذ الحقبة الأولى في تاريخ الأساطير .
وكما لدى جمع الكائنات الحية ، لا يمكن التشرجات محو أن الواقع
النهائي للميتولوجيا يكمن - لا في أعضاء متفرقة مبشرة - بل في جسم
متكامل ذي نبضات وتغيرات لا الى توقف .

الفصل الثاني

الأساطير التيوغونية الكبرى

جميع الشعوب^(١) ، في فترة من تاريخها ، أحست بالحاجة الى تفسير الكون . واليونان كذلك ، كما سواهم ، إنطلاقاً من مبدأ محرك في داخل الذات ، ظنوا أنهم وجدوا التفسير في الحب فقالوا انه ، في البدء ، كانت نيكس (إلهة الليل) ، ومعها أخوها إيريب . وهما وجهها الظلمة في العالم . نيكس في الأعالي وإيريب في الجحيم . وهما ، معاً جوهران يتعايشان في حضن السديم الأكبر ، الذي هو الفراغ - لا فراغ الفيزيائيين والعلماء السلبي واللاموجود - بل فراغ متكامل قوي ورائد في الكون ، ثم فراغاً بعد فوضى لا عن عدم وجود ، وهو فراغ لأنه لا يوصف لأنه هباء . ولكن ، تدريجياً ، راحت نيكس وأخوها إيريب ينفصلان عن السديم الأكبر . ولدى نزول إيريب ، حرر أخته نيكس (إلهة الليل) التي تجوفت فصارت كرة كبيرة في الفلك . ما لبث نصفها ان انفصلا كما بيضة تنشق نصفين ليخرج منها الصوص . يومها ، فعلاً ، كانت ولادة إيروس (اله الحب) ، واذا بنصفي البيضة بصيران : واحداً قبة الفضاء والآخر

(١) اصطللنا ، في الفصل السابق ، ان نسمي « تيوغونية » الأساطير المتعلقة بنسب الآلهة (المترجم)

اسطوانياً مسطحاً كَوْن الأرض . وهكذا ، إكتسبت الأرض والفضاء واقعاً مادياً . وصار الحب قوة طبيعتها روحية ، وصار هو الذي يؤمن تماسك الكون الناشئ . ومن إنحناء الفضاء على الأرض ، وجماعها ، بدأت السلالات الإلهية .

هذه ، رواية لهذه الأسطورة . لكن لها روايات أخرى . منها كون الأرض خرجت رأساً من الفراغ ، وأنها ، هي نفسها بمساعدة ايروس ، ولدت المولود الثاني للكون : قبة الفضاء . من جهة أخرى ، قيل ان السديم ولد نيكس التي - بدورها - ولدت أثير ، (إلهة النور المشع ، والنار الأنقى) كما ولدت النهار الذي اضاء المائتين . ولكن ، مهما تكن الرواية ، يبقى ايروس المحرك الأول والعنصر الأساسي للكون في بداياته .

وكان جماع الفضاء خصب التناسل . ومرتين ، ولد منهما ستة أزواج من الجبابرة والجبارات . أما الجبابرة فهم : أوقيانوس ، كويوس ، كريوس ، هيبيريون ، جابث ، كرونوس . وأما الجبارات فهن : تيا ، ريا ، تيميس ، منيموسين ، فويبيه ، تيتيس . وهم مخلوقات إلهية ، انما في الوقت نفسه ، هي قوى أولية حافظ بعضها حتى النهاية على طابعه الوحده طبيعي . وأوقيانوس هو الأشهر بينها جميعاً . انه تجسيد المياه التي تغمر العالم ، والعليها تعوم اسطوانة الأرض . ليس هو «اذن كياناً» جغرافياً ، بل قوة كونية ، ومفهومه وكَدَح حين كانت الأرض تُظَن جزيرة مأهولة كبرى ، نابتة في وسط نهر يزنرها . وهذه المياه الأولية ، خُيَل أولاً انها وُجِدت في الغرب ، في البلاد الحمراء لفتيات المساء ، خلف ما سُمي ، في ما بعد ، أعمدة هرقل . لكنها وُجِدَت عند الاثيوبيين على البحر الاريتري الذي هو حيناً البحر الأحمر ، وحيناً آخر الخليج الفارسي . ووجِدَت كذلك صوب

الشمال ، في منحدرات الايريدان ، وهو خط ماء متعرج ، شمالي بلدان أوروبا ، كان يسير من الشرق إلى الغرب . وحاولت فيه الأجيال اللاحقة أن تجد فيه مجرىً للدانوب ، وآخر للبو ، وآخر للرون ، وآخر للرين . إنما ، قبل هذه التحديدات الجغرافية غير الثابتة ، كان الأوقيانوس موجوداً . أنه المنبع الأولي للمياه ، وهو ابو جميع الأنهار ، تتغذى منه بقنوات تحت الأرض ، أو تتفرع منه طريقة سحرية ، كما النيل الذي يختبئ سره في الرمال الحبشية . وإذ أوقيانوس أول الجبابرة مولداً ، تزوج تيتيس ، صغرى الجبارات ، وهي تجسد القوة النسائية للبحر . من هنا الرمز المزدوج للبحر : فكل خصب مزدوج . ووحدها القوة الأنثى تُنضج وتحمل إلى الكائن بذرة الذكر . وكانت تيتيس تسكن بعيداً ، في الغرب . أحياناً ، كانت تصطدم مع أوقيانوس ، إنما لا يلبثان أن يتصالحا ، وينجو العالم من الغضبة الكبرى ، ومن نزوات النساء .

إلى جانب المياه الأولية ، ثمة اللهب الكوكبي . هيبيريون (واسمه يعني : الذي ينحو الى فوق) ، الذي تزوج الالهة تيا وانجب منها ثلاثة أولاد : هيليوس (كوكب الشمس) ، سيلينا (القمر) وإيوس (الفجر) . ثم يختفي هيبيريون وتيا من الأسطورة ، بعدما يكونان ركزا الأجيال الإلهية . أما كريوس ، فتزوج امرأة من خارج الجبارات ، ونجده ، لاحقاً ، في ذرية بونتوس . وأما أخوة كويوس ، فتزوج فوبيه الالهة النور ، وانجب منها ليتو الذي كان له دور مهم في ذرية الأولمبيين . وكسراجيت تقليد زواج الجبابرة من الجبارات ، فتزوج كليمينيه ، إحدى بنات أوقيانوس وتيتيس ، وكان له أربعة أولاد : أطلس ومينوتيتوس وبروميته ، وابيميته ، هم الذين كونوا الوصل بين الالهة والبشر . وإلى جانب ، يعود ، في شكل غير مباشر ، خلق البشر المائتين .

بين الجبارات ، تلفت اثنتان : تيميس ومنيموسين . الأولى قوة نظام العالم العظمى : انها القانون ، والتوازن الأبدي . وأختها ، منيموسين ، هي قوة الفكر ، والذاكرة التي تضمن انتصار الفكر على المادة الآنية ، فهي في أساس كل ذكاء . وكلتاها لم تتزوجا من الجبابرة ، وحُجزتا لزروس وذرية الأولبيين . وذلك أن الجبابرة قوى فظة بدائية لانجال معها للروح . ومن اللافت أن القوتين اللتين تكوّن فيهما الفكر ، هما من طبيعة نسائية - ربما لأن الفكر يرفض العنف وكل عمل مباشر ، وربما لأنه ذو نضج بطيء ، وربما ، في بساطة ، لأن لنا في هذه المعتقدات انعكاس حالة إجتماعية معروفة - اذ النساء مؤتمن الأسرار والعلم ، مما لدى القبيلة .

أما الجبابرة ، فأهمهم لسيرورة الكون ، هو كرونوس ، الأصغر ، الذي انجب ذرية الأولبيين . على أن جماع الفضاء والأرض لم تقتصر ثماره على الجبابرة والجبارات . فبعدهم ولد الصقالبة (والصقلوب عملاق اسطوري بعين واحدة) : أرجيس ، ستيروبيس ، وبرونتيس ، وكانوا ، كما تشير أسماؤهم على التوالي ، ومضة البرق ، وغيم الزوبعة ، وقصف الرعد . بعدهم ولد العمالقة ذوو المئة يد ، وهم كبيروالجثث ، عنيون ، ويدعون : كوتوس ، برياريه ، وجيس .

جميع هؤلاء ، كانوا يخافون من أورانوس (الفضاء) الذي لم يكن يسمح لهم برؤية النور ، بل كان يسجنهم في أعماق الأرض . وازادت غايا (الأرض) تحريرهم ، فحاولت الإتياف معهم ضد أورانوس . لم يقبل بذلك أحد سوى الأصغر بين الجبابرة ، كرونوس ، الذي كان يكره والده . عندها ، اعطته أمه غايا منجلاً فولاذياً قاطعاً ، واذ ، ذات ليلة ، حاول أبوه أورانوس (الفضاء) الإقتراب من زوجته غايا (الأرض) لمضاجعتها ، لم يكذب يضمها إليه ، حتى أسرع إليه كرونوس ، وبترله

بالمنجل خصيتيه ورماهما بعيداً . فسال دم كثير على الأرض ، أخصبها مرة أخرى ، فوكد عمالقة جدد هم الأرينيون والعمالقة والميلياديون ، الذين ولدوا حوريات الدردار .

وبقي كرونوس وحده حاكماً على كونٍ بدأت تتكون ملامحه الأولى . لكنه كان قاسياً ، وحمل في ذاته لعنة جريمته الأبوية . وقبل أن يفكر بتحرير أخوته ، فكر باغراقهم أكثر في الظلمات الجحيمية ، مما أثار أمه غايا (الأرض) ضده . وبما أن هذه ، كانت تنبأت له بأن أحد أولاده سيخلعه عن عرشه ، استعجل بافتراس جميع أولاده من زوجته ريا ، وهم ثلاث بنات : هستيا وديميتيه وهيرا ، وابنان : هادس وبوزيدون . ولكن ، حين كان أصغر أولاده ، زوس الصغير على أهبة الولادة ، أرادت أمه تحنيه مصير أخوته ، فهربت به سراً . وبالاتفاق مع غايا (الأرض) ، وجدت لها ملجأ في جزيرة كريت ، حيث تحررت . وهناك ، أخذت صخرة قمطتها واعطتها شكل طفل مولود ، وقدمته الى كرونوس الذي خدعه الشكل ، فافترسه ظناً منه أنه ولده ، وهكذا نجا زوس . وتم وحي غايا .

ورعت ريا طفولة الإله الصغير ، في مغارة من كريت ، وفي عهدة الحوريات والكوريات . وكانت هذه ، من الشياطين الشرسين الذين اخترعوا استعمال أسلحة البرونز ويمضون وقتهم بالرقص على لعبة السيف والترس . ورأت ريا ان هذه الضجة تخفي استهلاالات الرضيع وصراخه فلا يكتشف كرونوس انه خُدع . وشرب الطفل الإلهي من حليب العنزة أمالتيه وأكل من عسل نحلات الـ « ايدا » الذي كانت تفرزه خصيصاً له . وحين ماتت العنزة المرضع احتفظ زوس بجلدها جاعلاً منه درعاً يلوح به في سماء العاصفة .

ولما كبر زوس ، فكر بخلع والده . وتوصل ، بحيلة ، الى تجريع والده
غذراً جعله يعيد أولاده الذين كان اقترسهم . واذا عاد زوس والتقى
بإخوته ، شنّ حرباً على والده كرونوس ، فانتصر له إخوته الجبابرة ،
واستمرت الحرب عشر سنوات ، حتى كشفت غايا لزوس انه لن يربح
الحرب إلا اذا استعان بالعمالقة الذين أسرهم كرونوس في جوف الأرض .
وهكذا ، بمساعدة الصقالبة ، توصل أولاد كرونوس الى خلع والدهم .
فاجتمع كرونوس الى الجبابرة ، وكُـبِلوا وذهبوا الى حيثما كان أولاد
أورانوس (الفضاء) .

هي هذه ، حرب الجبابرة ، التي طردت من الحكم ، الذرية الأولى ،
وأحلت مكانها أوائل الأولمبيين .

اللافت أن جوهر الأساطير التيوغونية ، يكمن في سلسلة استبدالات
متناوبة ، في جيل أتى من سلفه بالقوة ، ليحكم العالم . ومرتين ، يكون
لأصغر الآلهة ، آخر مولود من كل جيل ، ان يغزو الرفعة ويتبوأ ، وهما :
كرونوس (آخر سلالة التيتانيين) ، وزوس (آخر سلالة الكرونيديين) .

وفي هذه الظاهرة ، أثر حالة اجتماعية كانت السلطة فيها تؤول الى
الأصغر . انما على صعيد التاريخ ، لا شاهد لذلك في أية مدنية يونانية
قديمة ، لذا الأرجح ان هذا التقليد الوراثي متأثّر من مدينة غير يونانية .
فالطابع الكوكبي الواضح في أسطورة أورانوس ، والبتر الذي سببه
كرونوس لأبيه ، يوحيان ، في هذه الظواهر ، بأصول آسيوية . وثمة
أساطير مماثلة نقلتها الينا النصوص الحثية ، في المقاطعة الوسطى من
الأناضول ، تروي عن منطقة تمتد من صقلية حتى سورية ، ونحن نعلم أن
روابط وثيقة جمعت هذه المناطق في حوض بحر ايجة . اذن فالأساطير

اليونانية البحتة ، لا تبدأ الا مع مجيء زوس ، انما ينتج عن ذلك ان هذه الخلافة المزدوجة ، كما أوردنا ، للأجيال الإلهية لا تمثل ، كما يعتقد البعض ، ذكرى احلال المعتقدات الموروثة ، بديانة طاغية . اذا كان هذا صحيحاً مع زوس المنتصر على كرونوس ، فهو غير صحيح مع كرونوس « قاتل » أورانوس . وبتر أورانوس ، عمل طقمي للأخصاب به « حرر » كرونوس منابع الحياة الكونية ، وحول هذا الطقس ، الحقيقي أو الرمزي ، نمت الأسطورة وترعرعت . أما وصول الأولبيين الى الحكم ، فمن طريق آخر .

إنّ الألوهات التي حل مكانها زوس وأخوته ، تمثل نظاماً دينياً سابقاً لنزول الغزاة « الآريين » الى اليونان . وهذه الألوهات لم تضمحل ، بل اكملت في الخرافات والأساطير وبقي لها ، في غير موضع ، بعض عبادة ، لكنها تبدو طاقات ثانوية ينفر طابعها الوحشي المتسلط من الفكر اليوناني . ويحاول الكثيرون ايجاد روابط لذلك مع البحر . قد يكون ذلك ، وقد يكون ابناء أورانوس الثلاثة ، ذوو المائة يد ، نسخة أسطورية للأخطبوطات التي تبرز على الفسيفساءات القديمة لبحر يجه . وثمة أكثر : ألمحنا سابقاً الى اهمية أوقيانوس بين سائر ابناء أورانوس وغايا . حوله ، قامت سلسلة من الأساطير المتشابهة ، تنبثنا عن ابن آخر للأرض ، ولد دون تدخل اي ذكر ، واسمه بونتوس ، الموج البحري . به اتحدت غايا ، وأعطته الخلود الذي منه خرج عدد كبير من الشياطين الثانويين ، كانوا آلهة قبل اليونان الأوائل . وجميع هؤلاء الآلهة ، قرييون من قوى الطبيعة ومظاهرها ، مما لا يوجد لدى الأولبيين . وجميعهم عمالقة ، مزدوجو الشكل ، كما في الأساطير اليونانية الحديثة

أول ولد من بونتوس وغايا ، كان «عجوز البحر» نيره ، الذي اتحد مع دوريس إحدى بنات أوقيانوس ، وأنجب النيريدات «بنات الموج» . وهم نيره ، وكان حكماً يعرف جميع الأسرار وجميع النبوءات . لكنه كان يأبى إفساءها ، ويتهرب من ذلك بهربه الى الهوى التي كان يتمتع بنعمة تحولاتها . وصورة نيره تذكر بصورة بروتيه (الواردة في «الأوديسيه») ، وهو شيطان البحر الراكد في المياه المصرية . وهو نفسه ، في الفترة اليونانية الكلاسيكية ، صار خادماً بوزييدون ، والمكلف بحراسة قطعان عجول البحر التي يملكها الإله الأكبر .

الإبن الثاني لبونتوس ، هو توماس الذي تزوج الكترا البنت الثانية لأوقيانوس وأنجب منها عدة بنات : ايريس (رسولة الآلهة وتجسيد قوس قزح) ، والهاربيات : آيلو وأوسيبتيه ، اللتان تضاف إليهما ثالثة هي سيلينو (العتمة) ، وأنهن من عبقریات العاصفة الطائشة . من هنا أن الهاريات هن مغتصابات ، يملكن جوانح ، ولهن برائن حادة ، ويسكن في قلب البحر الايوني في جزر ستر وفاد .

الإبن الثالث لبونتوس هو فورسيس الساكن في منطقة سيفالينا ، على الضفة الغربية لليونان . واليه تعود سلالة « الغريات » وهن نساء البحر العجز : اينو وييفريدو ودينو ، وكن يعشن في الغرب الأقصى ، حيث لم تلتصق شمس قط . وهن كن شقيقات المسخات الثلاث : ستينو ، وأورياليه وميدوز ، وهذه الأخيرة وحدها كانت من المائتات غير الآلهات . وكانت المسخات مرعبات المنظر ، رأسهن محاط بأفاع ، وهن مسلحات بواقيات كما لدى الخنازير البرية ، ايديهن من برونز وأجنحتهن من ذهب . وكانت أعينهن تلتصق ، ليخرج منها تحديق ثاقب اذا أصاب أحداً حوله الى حجر . ولما كن مخيفات جداً ، نفين الى اقاصي الأرض ، في زوايا

العتم ، لا أحد يتجاسر من قربهن . وحده بوزييدون اتحد بميدوز فولد منها بيغاز والحصان إيليه ، وكريزابور الذي صار في ما بعد والد جيريون العملاق ذي الثلاثة الأجساد ، (الذي قتله لاحقاً هيراكليس) ، ووالد الأفعى ايشيدنا ، التي تزوجت ، في ما بعد ، طيفون أبشع الوحوش الذي هدد ، يوماً ، زوس نفسه . وكان من هذا الزواج : أورثروس الكلب الوحشي ، وسيرير كلب الجحيم ، والخيمر (أفعى من تسعة رؤوس) التي كانت عدوة بيليروفون . ومن زواج اورثروس وايشيدنا ولد السفنكس التيبّي وأسد غيا . وهكذا ، كان الخيال اليوناني ينسب المحتد الى كائنات الكوايبس التي انتصر عليها هيراكليس .

آخر ما ولد لبونتوس : بنت هي اوريبييه التي تزوجت الجبار المتوحش كريوس ، وكان خلودها نجمياً . أما ابنها البكر آسترايوس ، فتزوج ايوس (الفجر) ، وكان من هذا الزواج : العاصفة ونجمة الصباح وسائر الكواكب . وأما ابنها الثاني بالاس العملاق ، فتزوج ستيكس ولم ينجبا سوى قوى رمزية : الحسد ، النصر ، القوة والعنف . لكن ابنها الثالث تزوج استريا (بنت كويوس وفوبييه) فولدت هيكات ، الالهة الجهنمية ذات الثلاثة الأشكال .

وثمة الجيل قبل الأولبي - اي جميع الألوهات التي لا تعود مباشرة الى كرونوس ، انما الى التيتانيين وسائر سلالات غايا - وهو يحوي جميع المسوخ التي تعرفها الخرافة والتي ستلعب دوراً في الدورات الالهية والبطولية ، وكذلك في « القصص » . ويحوي كذلك ، وخاصة ، ألوهات « طبيعية » بحتة : الشمس ، القمر ، الفجر ، الكواكب ، العواصف وعبقريات الظواهر الطبيعية كالزوابع . والى هذا الجيل البدائي ينتسب الصقالبة ، أبناء أورانوس ، الذين يجب تمييزهم عن الصقالبة البنائين الذين هم سكان

أسطوريون من ليقيا أتوا لخدمة ملوك أوغوس واليهيم تعود الأبنية الشاهقة التي في ميسان وتيرينت . والصقالبة الأورانيون ، ثلاثة : برونيس ، ستروبيس ، وأرغيس ، ولهم علاقة وثيقة بالعاصفة . ولما كان زوس ، هو أيضاً ، إله السماء استخدمهم لكي يصنعوا الصواعق . وثمة تقليد ينسب اليهم إعطاءهم المولود الجديد هذه الأسلحة ، حتى غدوا صانعي الأسلحة الإلهية : (قوس أبولون ، درع أثينا . . .) التي كانوا يضعونها في إدارة هيفايستوس الإله الحداد للجيل الجديد . لكن هذه ، قد تكون تخيلات لاحقة منذ العصور الاسكندرية ، ويقال إن تحركها كان تحت البراكين الصقلية ، ونارها هي التي ، ليلاً ، تضيء قمة سترومبولي وقمة اثنا ، وإنما اصطككاكاتها التي تدوي في تلك النواحي . على أن الأساطير الأقدم ، تفسر ظاهرة البراكين تفسيراً آخر ، اذ تنسب تحركها الى عمالقة مزروعين تحت الأرض بعد ثورتهم ضد زوس . فبعد انتصار هذا الأخير ، لم تكن غايا راضية ، كما بعد انتصار كرونوس . وهي غضبت من معاملة زوس للتيتانيين أولاده وارادت تحريرهم من سجنهم . فالتجأت الى العمالقة وهم ابناؤها من أورانوس ، ومائتسون انما لا يلحقهم الموت الا بضربة من اله يسانده أحد المائتين . وهم كبار الجثة ، قوتهم لا الى قهر ، وجريئون جداً . ولهم شعور ولحي طويلة ، وأفخاذ من ثعابين . مولدهم كان في شبه جزيرة بالينيه . وما كادوا يخرجون من جوف الأرض ، حتى راحوا يستلّون شجراً مشتعلاً ، ويرجمون السماء بحجارة كبيرة ، فتسلح زوس عندها بالصاعقة ، وتناولت أثينا المجن وقذفته ، فيما ديونيسوس استل الترس ، وراح كل إله يتسلح بما يستطيعه . واذا كان من الضروري أن يساعد أحد المائتين الآلهة في الصراع ، جيء الى هيراكليس للمساعدة . وكانت مساعدته فردية ، ومعاكسة لكل تسلسل منطقي تاريخي . اذ مولد

هيراكليس كان سابقاً لمولد البشر ولطوفان دوكاليون ، الذي يحدد نهاية الجليل الأول من المائتين . وهذه المعاكسة تكذب الطابع المصطنع ، الذي قيل عن هيراكليس بفضلله انه نموذج البطل الذي استغلته الخرافة السابقة . ومهما يكن ، كان الصراع بين الآلهة والعمالقة . وتدخل هيراكليس بأسهمه التي راحت تصيب العمالقة فيما يصارعهم أحد الآلهة . فتفرق العمالقة ، وانتشرت في العالم كله أشلاء وشظايا . وهكذا انسداد انسحق تحت جزيرة صقلية حيث حبسته الآلهة أثينا . وكذلك جزيرة نيزيرون المقدوفة من بوزيرون ، سحقت بوليوتيس . وتنسب الحكايات الشعبية الى هذه الفقرة من الأسطورة ، مجموعة من التفاصيل الأثرية .

وقبل ان يغزو زوس السلطة ، كان عليه ، بعد ، أن يخضع لتجربة قاسية : صراعه مع طيفون ، وحسب الروايات ، كان طيفون ابن هيرا التي أنجبته دون مجامعة ذكر ، او انه كان إبناً آخر للأرض من تترار . وكان طيفون أكبر من العمالقة ، حتى كان رأسه أحياناً يناطح النجوم . وعوض الأصابع في يديه ، كانت له مئة رأس تنين . ومن الخصر حتى قدميه ، كان جسده محاصراً بالأفاعي . وكانت له أجنحة ، وعيناه ترسلان السنة لهب . وحين رأى الآلهة هذا العملاق يناطح السماء ، هربوا الى مصر وتاهوا في الصحراء متخذين أجسام حيوانات . فصار أبولون خطافاً ، وهرمس أبا منجد (طائر مائي له قائمتان طويلتان ومنقار) ، وآريس سمكة ، وديونيسوس كبشاً ، وهيفايستوس ثوراً ، الخ . . . من هنا تفسير عبادة المصريين للآلهة المرموز إليها بالحيوانات . وهكذا ، بقي زوس وأثينا وحدهما في مواجهة طيفون . والتحم زوس وطيفون جسدين متحارين ، على تخوم مصر والصحراء العربية البتراء . وانقلب طيفون فوق زوس ، واستل منه المنجل الذي كان في يد الإله ، فقطع له عروق يديه ورجليه ،

وحمله بلا حراك إلى إحدى المغاور في صقلية . ومن جهة أخرى ، وضع عروق زوس في جلد دب وأعطاه إلى تنين . لكن هرمس والاله توصلوا إلى سحب هذه العروق وإعادةتها إلى مكانها خفية عن طيفون . فاستعاد زوس ، بذلك ، قوته ، وعاد الصراع من جديد طويلاً طويلاً . وتوسع إلى كل أقاصي العالم ، حتى دحر زوس خصمه تحت الـ « أثنا » ، في صقلية ، وتركه عاجزاً .

وكان طيفون آخر خصم لزوس . ولم يكن يخاف ، لتوازن العالم ، من ولدي بوزييدون اللذين وضعاً جبلاً فوق جبل ليصلا الى الألب ، وشتما أركيس وهيرا . وكان كافياً لزوس ان ينفث في صاعقته ، ليحجر عليهما في الجحيم . وصار هو السيد المطلق ، وإله الآلهة . ومن عرفهم العالم في ما بعد من العمالة ليسوا سوى أحفاد فاسدي الأصل من العمالة الأول ابناء الأرض . ولم يعودوا يريعون سوى المائتين من البشر ، فأوكل زوس الى هيراكليس أمر ضربهم .

وبقي في الكون تفسير ظاهرة وجود البشر . ولم يُنسب مولدهم الى سلالة كرونوس ، بل الى سلالة تيتان آخر هو جابت وزوجته كليمينيه إحدى الأوقيانيدات . وولد لجابت أربعة أولاد : أصلس ، مينوتايوس ، بروميتيه ، وإييميتيه . وكان الأولان عملاقين قوين وبلا قياس . فولد أطلس شياطين كوكبيين ، ومنهم الثريات والقلاص . وعاقبه الآلهة ، اذ هو حاربها وشتمها ، بأن يحمل على كتفيه قبة السماء ، حيث هي تنحني نحو الأوقيانوس ، في الغرب الأقصى من العالم . واذ عادت برسيه من قتلها ميدوز ، حولته حجرأ بتقديمها اليه وجه مسخ . وصار أطلس هو الجبل الذي يحد الأرض المسكونة في جنوبي اعمدة هرقل ، ويكون أول

وبين أبناء جابت الاربعة ، يقال ان بروميتيه هو الذي خلق البشر بواسطة الصلصال . لكن هذا التقليد ليس ثابتاً . وفي « تيوغونيا » هيزيود ، ليس بروميتيه سوى ولي البشر ، وقد يخون زوس لأجلهم . وهو فعل ، مرة أولى ، خلال تضحية علنية ، قدم خلالها ثوراً على قسمين : أول من جلده ولحمه وأحشائه ، وثانياً من عظامه المجردة من كل لحم ، اي مغلفة بدهنة بيضاء . وقال لزوس ان يختار حصته ، والباقي يتقاسمه البشر . فاختار الدهنة البيضاء ، وفوجيء بالعظام فغضب كثيراً على بروميتيه وعلى البشر . ولكي يعاقب هؤلاء ، رفض ان يرسل اليه النار . فصعد بروميتيه الى السماء واغتصب قطعاً من نار في « عجلة الشمس » ، وحملها الى الأرض في قصبه . وكانت غضبة زوس ، هذه المرة ، عظيمة ، فقيد بروميتيه على جبل القوقاز بقيود من فولاذ ، وجي بنسر من مواليد أشيرنا ، يأكل كبده التي كانت تتكون من جديد . واستمر العذاب طويلاً ، حتى اليوم الذي جاء فيها هيراكليس ، وأصاب النسر بسهم قتله ، وتحرر بروميتيه ، ولما كان زوس أقسم بالستيكس أن يبقى بروميتيه مقيداً الى الجبل ، اتفق أن يبقى القسم سائداً إذا حمل العملاق ، بعد تحرره ، خاتماً من فولاذ ، ترصعه قطعة من صخر . وبقي عقاب البشر بلا حل ، وهو هكذا ، أفسى .

وطلب زوس من هيفايستوس ومن الالهة آتينا ، ان يخلقا كائناً مجهولاً ، يسمه الالهة كل بصفة . وكانت . . . المرأة ! واذا أغدقوا عليها الصفات والنعوت ، سُميت باندور (اي التي تملك جميع المواهب) . كان لها الجمال والنعمة والحذاقة والإقناع ، لكن هرمس كان وضع في قلبها الكذب

والمراوغة . ويقال ان زوس قدمها هدية الى ابيثيميه ، شقيق بروميتيه الذي نسي نصيحة شقيقه بالأ يقبل أية هدية من زوس ، فأخذها جمالها وقبلها . وكانت في مكان على الأرض ، جرة تحوي جميع الشرور ، يعيقها عن الخروج منها غطاء محكم . فما وصلت باندور الى الأرض ، حتى اكتشفت الجرة ، وحملها الفضول الشديد على فتحها . وخرجت منها الشرور متفرقة بين البشر . خافت باندور وأعادت الغطاء الى الجرة ، فلم يسبق فيها الأ الأمل في عمقها .

وثمة رواية أخرى تقول ان الجرة - وهي هدية العرس من زوس الى باندور - كانت تحوي كل الفضائل ، لكن عدم حذرهما جعلها تفتحها وتفيض هذه الفضائل على الناس . وفي كلتا الروايتين ، يبقى الأمل التعزية الوحيدة التي مُننت على الناس .

والتقاليد التي لا تعترف لبروميتيه بفضل خلق البشر ، تنسب اليه سلالتهم . فعنها ، ان بروميتيه كان له ولد يسمى دوكاليون ، تزوج من بيرا ابنة ابيثيميتيه وباندور . وكان على الأرض بشر آخرون - لا تفسير لأصلهم - وهم « رجال عصر البرونز » الأشرار المؤذون . وقرر زوس ابادتهم فأنزل طوفاناً عظيماً لم ينجُ منه إلا دوكاليون وبيرا . وبناء على نصائح بروميتيه ، وضعوا فلകاً عاموا به على سطح المياه ، وظلوا هكذا تسعة أيام وتسع ليال حتى بلغوا جبال تيساليا . وعندما انحسر الطوفان ، خرجا من الفلك ووجدوا نفسيهما وحدهما على الأرض الفقراء . فأرسل زوس لهما هرمس الذي قدم لهما استكمال وفائهما . فتمنى دوكاليون رفقاء له ، فأمره زوس بوضع عظام أمه على كتفه . أما بيرا ، من جهتها ، فطلبت كذلك لكنها خافت من هذا الكفر في وضع العظام . لكن

دوكاليون فهم أن المقصود الحجارة ، عظام الأرض التي هي الأم الأزلية . فأتاع زوس ، ومن كل عظمة كان يرميها ، كان يولد رجال ، وتولد نساء من كل عظمة ترميها بيرا . بعدها لجأ دوكاليون وبيرا الى طريق الايلاد الطبيعية ، فكان لهم أولاد هم أجداد مختلف شعوب اليونان . البكر كان هلين ، الذي ولد دوروس وكروتوس وايولوس ، وهذان الأول والثالث وهبا اسميهما للسلاطين الدورية والأيلية . وكان لكروتوس ، بين أولاده ، أكبوس وايون اللذان اعطيا اسميهما للأكيين والأيونيين . وهكذا نشأت الفروع الكبرى للشعب اليوناني ، ونحن الآن على تخوم نشأة الكون ونشأة التاريخ .

من هنا ، ان الأساطير المقابلة للخلق ، لا تشكل كلا متناغماً . فإضافة الى كونها تحوي تغيرات كثيرة ، لا تحوي فعل خلق واحداً ، كما لو ان الفكر اليوناني يرفض كل تفسير كامل . ويفضل ان يبقى أقرب الى تفسيرات متعددة للكون . لذا ، معه ، الاله اليوناني لا يحوي كل الكون فيه . وتبقى القوى الفوطيبعية في دائرة لا تملك هي زمامها ، ولا أمر حازماً لها . ففوق ارادتها ، تحوم « قوة الأشياء » المسماة احياناً « القدر » ، والتي تتصرف بنوايا البشر وتصرفاتهم . وما إلا ، في ما بعد ، على زمن الفلاسفة ، حتى يقال عن عملية خلق واعية ومقصودة ، وفق تصميم منطقي ، انما عندها ، يخرج الكلام على إطار الأسطورة .

وحول خلق الإنسان ، كذلك يلاحظ ان في هذه النظرية بعض الغموض . فثمة أساطير تفسر خلق فرد معين من عنصر معين ، انما تفترض وجود رجال آخرين قبله ، كما - حتى على صعيد الأسطورة - لو ان الفكر اليوناني لم يستطع رفض الموازنة بين جميع الناس . وثمة خلق تيسالي

تختصره أسطورة دوكاليون وبيرا . كما ثمة خلق أرجي يفترض « إنساناً أول » اسمه فورونيه ، ابن النهر ايناكوس والخورية ميليا . ومن فورونيه هذا ، خرجت سلالة أبرزها أرغوس الذي وهب اسمه للبلد الأرجي ، وأبرزها ايضاً بيلاسغوس الذي وهب اسمه للبيلاجيين ، وأكايوس (وهو غير ابن كزوثوس) وميسينه (واهب اسمه لميسنيا) وفتيوس واهب اسمه للبلد فتيوتيدا (في تيساليا) .

وأكثر من عملية نشأة الكون ، تقدم لنا التقاليد المحلية سلالات متعددة تبرز فيها تدريجياً السلالة البشرية تنبثق من سلالة الخوريات والأنهار ، هي الأرواح الأنثوية ساكنة الأشجار . فليس بين الآلهة والبشر الحل الحقيقي للإستمرار الذي يفترضه عملية خلق مسبقة . والى حد معين ، يمكن القول إن اليونان يرون البشري « إلهياً سقط » ، مما يفسر أن الأسطورة غالباً يمكنها تقديم المعطيات المعاكسة لترينا البشر مقتحمين ، بقواهم الشخصية ، حرم الآلهة .

وثمة ، أخيراً ، أسطورة بروميتيه ، افضل تمثيل للأسطورة ذات الخلق ، وهي التي تشدد على كون البشر خلقوا على هامش ارادة زوس . ودون أن يكون بينه وبين البشري أي عدا ، ليس الإله ، هنا ، « أباً للبشر » . بل هو سيّد يلتقي البشريين في مملكته ويستفيد من وجودهم . من هنا حاجة زوس للبشر الذين ، في نظر الأولبيين ، هم فرع أساسي ، وينعمون ، على الصعيد الكوني ، بنوع من الأخوة الأساسية مع الآلهة . وجميعهم يخضعون وهو هنا ، الفرق الطارئ بين الظرف والملك ، لكنه فرق ، بطبيعته ، غير شديد الانفصال .

الفصل الثالث

عصر الأولبيين

الثورة السماوية التي أشعلها زوس ، حملت الى الحكم سلالة الكرونيديين ، ابناء كرونوس وبينهم السيد الجديد (زوس) وهو آخر من ولد . ففي البدء ولدت ثلاث : هستيا ، ديمتير ، وهيرا ، ثم ولد ثلاثة : هادس ، بوزييدون وزوس . وتوزع الكرونيديون في الحكم كما أسلافهم التيتانيون أبناء أورانوس . وكان لكل منهم صفة وميدانه كما حددها له القدر . وكذا الحال مع الآلهات الثلاث : فهذه هستيا تولت المنزل : تجمدت في الأولب كما المرأة في منزل بعلها ومنحها زوس بكاراة ابدية . وأختها ديمتير تولت الأرض المزروعة ، دون اتحادها مع غايا ، الأم الأولى التي تحوي أيضاً الجبال والصحاري . وديمتير ، وهي أيضاً أم خصبة ، متحدة خصوصاً بأساطير القمح ، وأماكن عبادتها : المراعي الخصبة حيث تنبت السنابل . اما هيرا ، فلها ألوهة الزواج . انها زوجة زوس ، وكل عام تقام لها ذكرى زواجها من الإله . ويكون تزيين تمثال الإلهة بوشاح المخطوبة ، ويصار الى تجوالها عبر المدن ، وصولاً الى معبد مهياً فيه المخدع الزوجي . وبهذا ، كانت تتجدد القوة الفاعلة لدى الزوجين ، ومن خلالها ، القوة الفاعلة في كل الطبيعة .

صفات أبناء كرونوس الثلاثة : هادس وبوزيديدون وزوس ، لم تكن ملكاً لهم ، إنما اعطيت لهم بالقرعة . فبعد انتصارهم على التيتانيين ، توزع الأخوة الثلاثة ميادين العالم الثلاثة : زوس السماء ، بوزيديدون البحر ، وهادس ما تحت الأرض ومملكة الموتى . ولكن ، ابان الصراع مع التيتانيين ، أخذ كل واحد منهم سلاحاً من الصقالبة ، موازياً لمهامته اللاحقة : فأخذ زوس الصاعقة ، وهادس قبعة سحرية تعتمد الى إخفاء من يلبسها (رمز الموت يقال لها اليوم : قبعة الإخفاء) ، وأخذ بوزيديدون بذراة (شوكة) ثلاثية شبيهة بمذراة صيادين التن ، كانت تساعد على زعزعة الأرض والمراكب . وفي أواسط العهد ، مزج لقصة طموح تاريخي ، ونوع من الوصف معاكس لتسلسل الوقائع التاريخية ، كما ، مثلاً ، كان تدخل هيراكليس في زمن سابق لمولده .

وإلى الستة الأولبيين الأول من أولاد كرونوس ، أتت ألوهات أخرى ، كونت معهم « مجلس » كبار الآلهة . أكثرهم كان من أبناء زوس وبناته ، مما جعل لهذا الأخير اسم « أبي الآلهة » . وعن التقاليد المتأخرة - المولودة خاصة في روما تحت التأثير الأتروري - ان ثمة ١٢ إلهاً كبيراً (مساوين عدد الـ ١٢ تيتاناً) ، كلهم تغيروا أسماءً وملامح ، مع الزمن . والآلهة الذين من زوس ، والذين يؤلفون ، في العهد الكلاسيكي ، الجيل الثاني من الأولبيين ، هم : أفروديت ، أبولون ، ارتيميس ، هيفايستوس ، أثينا ، أريس ، هرمس ، وديونيسوس . مما يكوّن ، مع الستة الكرونيديين ، مجموع ١٤ إلهاً ، بينهم ديونيسوس الذي يجهله هوميرو ، لأنه حديث العهد في الأولمب ، رغم ان اسمه يعود الى المسيينيين . على ان لجهل هوميرو اسم ديونيسوس ، سبباً آخر . ومهما

يكن ، للحصول على مجموع ١٢ ، يجب إقصاء هادس وبوزيدون لأن ميدانها ليس علوياً .

مع هذا ، ثمة آلهة آخرون خارج اللائحة « الرسمية » . وهذه ، نستثني منها برسيفون ابنة ديميتير وزوس ، انما زوجة هادس ، الذي يحبها معه في الجحيم . وكذلك نستثني امفيتريت ، زوجة بوزيدون وابنة نيريه ودوريس ، وكذلك بعض أبناء زوس الإلهيين : هيبيا (رمز صبا الآلهة) ، ايليتيا (شيطانة النسل) ، الأيام (القوى المسيطرة على الفصول) ، الملهمات (وعنهن يصور كل نشاط للفكر والروح) ، النعم (التي تسهر كل عام على تجديد النبات ، وهي تجسد فرح العالم) . وهؤلاء الآلهة يحيطون فقط بالآلهة الكبار ، وهم حاشيتهم في مواكبهم ، كل التوابع والخدم ، إنما لا يشتركون في محرماتهم .

وهكذا ، نجد أن صفات الأولمبيين الجدد ليست أقل تحديداً من أسلافهم . فهذا أبولون يتولى التأليه وشفاء المرضى ، والموسيقى ، ويقود جوقة الملهمات ويعزف على قيثارة ذهبية . ومن خلال هذه الملهمات ، تبان قوة الأناشيد السحرية ، وربما هنا مبدأ شخصيته المتعددة الجوانب . فأحياناً ، هو اله الشمس ، استناداً الى بعض صفاته ومهامه ، لكن هذه الصفة ليست أساسية فيه . صحيح انه ، من حيث أمه ليتو ، ينسب الى التيتانيين النجميين ، الى كويوس وفوبيه ، لكن الشمس (هليوس) ، شيطان مميز في داخل الميتولوجيا . وهو يملك أساطيره الخاصة وله دمغة التيتانيين اذ هو معتبر ابناً لهيبيرون . وهذه التسمية لا يمكن أن تنطبق على أبولون ، لأنه في الأساس أولمبي وطبيعته متعددة . ومنذ وضعته أمه ، في جزيرة ديلوس ، قامت بهجات مقدسة بالتحليق سبع مرات فوق الجزيرة

اذ كان ذلك ، اليوم السابع من الشهر . ثم حملته البجعيات الى منطقتها ، على ضفاف الأوقيانوس ، صوب الشمال (لدى شعوب البلدان الشمالية القصوى) حيث السكان يعيشون تحت سماء نقية . وهناك ، بقي عاماً كاملاً ، يحظى بتكريم السكان ، حتى ، في أواخر الصيف ، عاد الى اليونان التي استقبلته بالغناء والأعياد . وكل عام ، كانت تقام في دلف ذكرى مجيء الإله . والحقيقة ان ابولون ، لدى مجيئه ، استقر في دلف . وعند وصوله ، اضطر الى قتل تنين يدعى بيتون ، كان يحرس ، في الجبل ، معبداً قديماً لتيميس ، وكان ينصرف الى اللهو والتبذير والتخريب في المدينة . وتذكراً لقتله هذا التنين ، أقام ابولون اعياداً سماها « الأعياد البيثية » (نسبة الى التنين بيثون وصارت تقام كل أربع سنوات في دلف) . وفي استيلائه على معبد تيميس ، سماه بإسمه ، وخصص فيه قاعدة ثلاثية لتجلس عليه العرافة التي كلفها بإيصال ردوده الى البشر .

وكان ابولون أجل الآلهة ، وابهاهم ، فعرف غير مغامرة حب ، لم تكن في أكثرها من الطرفين . فهذه ، مثلاً ، الحورية « دافنيه » ابنة إله نهر بينيه ، في تيساليا ، لم تقاسمه حبه . هربت الى الجبال فلاحقها فتمنت من ابوها أن يمنحها الهيولى فتحولت الى شجرة غار صارت شجرة ابولون المفضلة . وكذلك كورونيس التي حبلت منه بالطفل اسكليبيوس ، لكنها ، وهي عشيقته ، خانتته مع أحد المائتين واسمه ايسكيس . لكن ابولون ارداها بسهم وسحب من أحشائها الجنين قبل اضطرام النار في محرقة المائتم .

ومع كاساندر ، ابنة بريام ، لم يكن ابولون أكثر سعادة . ولكي يغويها ، تبرع بأن يعلمها الألوهة . قبلت كاساندر ، ولما تعلمت ، لم

ترض الرضوخ لرغبات أبولون الذي ، انتقاماً ، بصق في فمها فأفقدوها كل ما كانت تعلمت ، وأفقدوها موهبة الإقناع . وصارت كاساندر عبثاً تحاول رواية التنبؤات : فلم يعد أحد يصدقها .

ولم يقصر أبولون عشقه على النساء ، بل أحب الذكور . وأبرز هؤلاء ، هياستوس وسيباريسوس ، فجاءت الهوى (الأول صار زنبقة والثاني سرقة) وحرمتها منها فحزن كثيراً . وخلف هاتين الأسطورتين ، تختلط ذكريات كثيرة سابقة لمجيء الهيلينيين ، وقد تكون ايجيه (من بحر ايجيه) امتصتها أخبار أبولون .

ويروى عن أبولون أيضاً مروره بتجربتين ، إضطر معها الى الخضوع للبشر: الأولى عقب مؤامرة حاكها مع بوزييدون وهيرا وأثينا ، وتقوم على ايثاق زوس في قيود حديدية وتعليقه في الفضاء . وفشلت المؤامرة ، فكان عقاب أبولون وبوزييدون ان يعملوا في خدمة لاوميدون ملك طروادة ، فيعمرا جسور المدينة . ولدى انتهائهما طالبا الملك بأجرتهم ، فرفض وهددهما بقطع آذانها وبيعهما عبيداً .

والتجربة الثانية كانت في ارغامه على خدمة الملك « أدميت » في فير (تيساليا) . وهو عقاب فرضه عليه زوس ، لأن أبولون كان اردى بسهامه ، الصقالبه الكانوا حملوا الصاعقة الى زوس الذي بها قتل اسكليبيوس ابن أبولون لأنه قام من بين الأموات . فبات أبولون طوال عام كامل لدى الملك « أدميت » يرعى مواشيه التي نمت في رعايته أعجوبياً ، وصارت توائم مما أفرح الملك كثيراً .

أما ارتميس ، شقيقة أبولون ، فهي أخته التوأم ونسخة مطابقة له . ومثله تحمل قوساً ترمي بسهامه النساء - وخاصة اللواتي على اهبة التوليد -

فتقتلهن . وبقيت عذراء ، تمضي وقتها في الصيد مجتازة الجبال تصحبها كلابها . وكما ابولون يحمل صفات اله شمسي ، كذلك كانت نسبة ارقتمس صاحبة القوة الهائلة التي تسيطر على الخصاب الحيواني في الغابات ، لذا نجد فيها ملامح من إلهة كريت . من هنا يتم الاستنجد بها عند كل عملية توليد ، وتؤمن بها جميع الأمهات . ويقال ان قدرة العذراء ارقتمس ، موجودة فيها منذ ولادتها . فأمرها ليتو ، أحبها زوس ، وكانت على وشك ان تضع منه توأمين إلهين حين عرفت هيرا زوجة زوس والحسودة الكبرى من ليتو الجميلة ، فمنعت جميع أماكن الأرض من ان تتسع لها موضعاً لاحتواء آلامها وتوأميها . وراحت ليتو تهيم في البلدان ، وكل بلد يرفض أن تلد فيه ، وآلام المخاض تزداد . الى ان كانت جزيرة ديلوس - وهي أيضاً جزيرة هائمة وعافر وفقيرة - فاستقبلت ليتو التي وضعت توأميها على جذع النخلة الوحيدة في كل الجزيرة . وكانت أرقتمس ، التي خرجت أولاً من أحشائها ، وراحت تساعد أمها على انقاذاها في وضع ابولون ، ثاني التوأمين .

هيفايستوس كان يأمر النار . لم يكن هو النار ، بل سيد مصاهر الحديد . ويروى حيناً أنه ابن زوس ، وحيناً آخر أنه ابن هيرا التي وضعت دون مساس من ذكر ، انتقاماً من زوس الذي وضع اثينا من رأسه ، دون مجامعته انثى . وخرج هيفايستوس شيطانياً أعرج . تدلنا « الإلياذة » على ذلك . واذ كانت هيرا تصطدم مع زوس في موضوع هيراكليس ، اتخذ هيفايستوس جانب أمه . فأخذ زوس من رجله ورماه من أعلى الأوبل فبقي يوماً كاملاً مبهط من فوق ، حتى وصل عند المساء الى الأرض في جزيرة لمنوس التي خبط عليها منهكاً . ولما هو من البشر ، لم يمت لكنه أصيب

بخلع في رجله فصار أعرج . وتظهره لنا الأسطورة على انه جرب في إلهي مهياً دائماً لتنفيذ أي عمل ، في مساعدة الصقالبة الحدادين ، كما الجواهر والأسلحة ، لسائر الآلهة . لكن الفترة الأهم من عهده ، هي مغامرته الفاشلة في زواجه من أفروديت . فإنه ، وهو الملعون جسدياً ، عرف نساءً رائعات الجمال والجسد . ويُنسب إليه زواجه من غير واحدة ، كما شاريس (النعمة) وأغرييه الصبية . لكن زوس زوجه من أفروديت ، أجملهن على الإطلاق . لكنها لم تلبث أن عشقت أريس ، وفاجأتها الشمس يوماً متعانقين ، فراحت وأخبرت الزوج الذي لم يقل شيئاً ، انما راح فحاك شبكة خفية حول سرير زوجته حيث كانت تخونه . وذات يوم في الموعد المناسب ، انطبقت الشبكة عليهما معاً فجمدتهما عن كل حركة . عندها ، دعا هيفايستوس جميع الآلهة ليشهدوا . ولدى تحريرها ، هربت أفروديت خجلاً وسخر منها كل الآلهة .

وأفروديت هذه ، الرفيقة الخائنة ، تقال غالباً ابنة زوس وديونيه إحدى قدامى الآلهات . وتقال أحياناً ابنة اورانس . ويقال انها ولدت حين سال دم الإله على البحر عند بتر عضوه . وهكذا ولدت أفروديت من الأمواج ، وهي صفة ينسبها إليها جميع الشعراء . وما خرجت من الزبد البحري ، حتى حملها النسيم الى سثير ثم الى ضفاف قبرص وهي ضواحي شاعريتها المفضلة ، حيث عرف لها ، في الفترة التاريخية الطويلة ، معابد شهيرة . وهناك ، استقبلتها الفصول التي ألبستها وزيتها وحملتها عند البشر .

في أساطير أفروديت عناصر مختلفة كثيرة . انها تبدو ، في أساسها ، قوة هائلة لا ترد ، تخضع الكون كله لأوامرها . وهي شيطانة الأخصاب الأنثوي ، ومن هنا اخصاب الطبيعة كلها . وأشهر أساطيرها ، مغامراتها

العاطفية مع أدونيس الأشهر ، الذي ترك لهذه الألهة عبادات كثيرة .

ويروى ، حول هذا ، أن كانت للملك سورية ، تياس ، ابنة اسمها
ميرا - أو سُميرنا - جعلتها غضبة أفروديت تشتفي ارتكاب عمل محرم مع
أبيها . فكان لها ، بمساعدة مرضعها ، أن تخدع تياس ، وتضاجعه طوال
اثنى عشرة ليلة . انما ، في الليلة الأخيرة ، إكتشف تياس جريمته ولحق
بابنته ليقتلها . فإستنجدت سُميرنا بالآلهة ، الذين ، لإنقاذها ، حوكلوها
شجرة سميث « شجرة الصبر » (ميرنسبة الى اسم الصبية ميرا) . وبعد
عشرة أشهر ، وقعت القشرة عن الشجرة ، وخرج منها ولد سمي
أدونيس . ولشدة دهشتها من جمال ولدها ، احتضنته وسلمته الى برسيفون
لتربيته سرّاً ، في ظل الجحيم . لكن ملكة الموتى أخذت بجمال أدونيس فلم
تشأ أعادته الى أفروديت . وكان زوس شاهداً على الصراع ، فقرر ان
يعيش أدونيس ثلث السنة مع افروديت ، والثلث الثاني مع بيرسيفون ،
والثلث الثالث مع من يختارها هو . لكن ادونيس امضى ثلثي السنة مع
أفروديت ، وثلثاً واحداً في مملكة الموتى . وظل هكذا بعض الوقت ، حتى
كان من أريس ، (عشيق أفروديت) ، أن أثار - حسداً - خنزيراً برياً
ضدّ الشاب الوسيم ، فضربه ضربة أرداه بها من تأثير جراحه . ومن دم
ادونيس الجريح ، ولدت الشقائق الحمراء في الحقول ، واحياء لذكرى
حبيبها ، أسست أفروديت عيداً مأتماً كل عام ، تشترك فيه نساء سورية .
فكن يزرعن ، في أحواض ، حبواً يسقينها بماء ساخنة لتنبث في سرعة .
وكن - يسميها « حديقة أدونيس » . ولم يكن طويلاً عمر تلك النباتات
المضغوطة على الحياة ، فكانت تذبل وتموت ، فتقيم النسوة مناحة على ذبوها
تذكراً لحبيب أفروديت . وفي الوقت نفسه ، كان نهر أدونيس الجاري في

بيلوس ، يحمر كما لو انه مخضب بدم بطله .

وواضحة هنا بصمات الجذور السامية لهذه الأسطورة : فاسم أدونيس ، قريب من الجذر السامي الذي يعني « السيد » . والمكان الذي جرت فيه ، يدل على أن أفروديت مدينة ، بأكثر أطباعها ، للإلهة السورية . (١) .

وتدريجياً ، لم يعد لأفروديت من طابع سوى الحب ، وغابت عنها صلاتها بالأخصاب وقوتها الأولى . وهي أحبت كذلك أنشيز ، (قريباً من « ايدا ») ، موهمة اياه انها بشرية ، وابنة ملك فريجيا ، وأن هرمس حملها الى هناك وتركها في الغابة و . . . رحل ! وانجبت أفروديت منه ولداً دعي اينييه ، وأرغمته على القسم بالآيواح بسر هذا الحب الكبير بينهما .

ومن العلاقة الرجيمة بين أفروديت وأريس ، ولد اثنان هما ايروس (الحب) ، وانتيروس (الحب المتبادل) ، اللذان راح الفنانون في العهد الاسكندراني يتفننون في إظهارهما ضمن أشكال طفولية ، هي جذور مباشرة لصور الملائكة اليوم . وقام الفن في بومباي فنقل مشاهدتهما الى الفن الشعبي : الحب المعاقب ، الحب المغدور ، وفيها يبدو ايروس ولداً خبيثاً أو حروداً أو تعيساً حدّ أمه أفروديت . من هنا نسيان صورة ايروس القديمة التي منذ نشأة الكون ، لم تعد صورته وصورة أمه إلا زخرفاً صالونياً .

مع أن الأسطورة تحفظ لأفروديت صورة مرعبة . فلعناتها رهيبة . وهي التي أوحى الى ايوس (الفجر) بحب عظيم تجاه أوريون ، عقاباً لها انها (١) ألقت الى أن المقصود ، هنا ، أرض لبنان ، التي تحوي مدينة بيلوس (جبيل) ونهر أدونيس . (المترجم) .

استسلمت لأريس . وعاقبت كره نساء ليمنوس لها ، بمسحهن براثحة عفنة لانطاق جعلت أزواجهن يتركهن . وكذلك عاقبت أفروديت صبايا سينيراس ، في باتوس ، بمنحهن رغبة مضاجعة الغرباء . لكن قوتها ظهرت عظيمة في أثناء حرب طروادة . فيوماً ، رمت إلهة الفتنة ، وسط الآلهة ، تفاحة مرصودة لأجل الآلهات . أحرزت التفاحة ثلاثة منهن . فأمر زوس أن يأخذ هرمس الصبايا الثلاث أفروديت وهيرا وأتينا ، إلى « ايدا » ، ليحاكمهن فيها الوسيم « بارس » ابن بريام . وقفن أمامه ، وأقمن جدلاً وعدن في آخره بتقديم هدايا . فوعدت هيرا القاضي بالملكة الخالدة ، ووعدت أتينا بجعله أقوى من جميع أعدائه في الحرب . أما أفروديت فاكنت باهدائه يد هيلين ، أجمل بنات البشر . وحكم « بارس » لصالح أفروديت ، وكان ذلك سبباً في الحرب بين اليونان والطوراديين . وخلال المعارك ، تدخلت الإلهة لصالح الطوراديين وخلصت بارس من المعركة ، وحمى ابنه الكان يهاجمه ديوميد ، وكان نصيبها جرحاً بالغاً .

وثمة تضاد قوي بين أتينا وأفروديت . فزوس ، في الفترة الأولى من حكمه ، كان تزوج ميتيس الأوقيانية وجعلها حبلى . فقال أورانوس وغايا لزوس انها إن انجبت بتاً ، فسوف تلد بعده صبياً يحكم العالم . هكذا تشاء الأقدار . وبدون تردد ، بلغ زوس ميتيس انقاداً لمركزه . وحين حان أوان الولادة ، أمر هيفايستوس بضربها على رأسها بفأس . وعندها ، خرجت من حجمتها صبية مسلحة ، كانت الإلهة أتينا . أما تلك الولادة ، فكانت على ضفاف بحيرة تريتونيس في ليبيا .

خرجت أتينا إلهة محاربة ، وتروى عن عهدها أخبار كثيرة . وهي قامت بدور مهم جداً في الحرب ضد العمالقة ، فقتلت بالاس وقشرته وصنعت من جلده درعاً . أما رموزها فثلاثة : الدرع ، الحربة ، والمجن . وكانت

تحمّل على درعها رأس ميدوز الذي أعطاهّا إياه بيرسيه وكان يتحول حجراً كل من ينظر إليه . لكن أثينا ، بتضادّ عجيب ، هي أيضاً إلهة السلام . وهي تحمي الغازلات والحائكات ، وإذا هي اخترعت عربة الحرب ، فإنها ، في المقابل ، زرعت في اليونان زيتوناً ، وعلمت الاتيكين (الاثينيين) استخراج الزيت من حبوبه . وهي ، في صورة عامة ، تتدخل في غير أسطورة ، كما في الفكر وفي المنطق ، وهما يمنحان قوتهاا للشجاعة . وهي التي سلّحت هيراكليس وساندته في اللحظات الصعبة . وأخيراً ، هي التي أمّنت لهيراكليس الخلود في جعله لا يموت . وفي « الأوديسيّه » ، نجدها دائماً تساند أوليس ، وتوحي إليه بالقرارات الحذرة والحكيمة .

لكن أثينا بقيت عذراء . وثمة أسطورة أتيكية تقول انها ولدت ابناً في حالات خاصة تم تلخيصها كما الآتي : ذات يوم ، وكانت ذهبت لتزور هيفايستوس في مسبكه ، تطلب منه سلاحاً ، وقع الإله - وكانت أفروديت تركته - في هوى أثينا . وباح لها به ، لكنها لم تشأ الاستماع إليه ، فهربت ، لحق بها هيفايستوس . ورغم كونه أعرج ، بلغها فشدها من يدها وعانقها وبلبل بشهوته ساقى الإلهة التي كانت تصدّه . ومن قرفها ، مسحت أثينا سائل الإله المخضب بنديفة من صوف ورمتها أرضاً . لكن السائل المنوي الإلهي أخصب الأرض فولد منها ولد سمّي ايريكتونيوس (وهو ، جمع لكلمتي صوف وأرض) ، فاعتبرته الإلهة ابنها . وقررت اعالته ، ورغم الإلهات ، صممت على جعله خالداً لا يموت . ووضعته في صندوق جعلته في حراسة باندروسوس إحدى بنات الملك سيكروبس . لكن اغلوروس ، شقيقة باندروسوس ، لم تستطع ، رغم أوامر أثينا ، ان تحرم نفسها من النظر في الصندوق ، فرأت الولد نائماً تلتف حوله حية

رهية . واذا بالصبيتين ، لخوفهما ولعنة أفروديت عليهما ، يهبطان من فوق صخور الأكروبول في أثينا . وفي ما بعد ، استولى اريكتونيوس على حكم بلاد الاتيك ، ومنه خرجت سلالة ملوك أثينا . إذن ، تبدو أثينا على الأخص إلهة مدينة الاثينيين وانها بهذه الصفة ، تحمل مبدأ وحدتها ومبدأ عهدها الأسطوري . ففيها تكمن روح المدينة التي تحمي ، كما تثبت ذلك المعتقدات القديمة ذات الصفات السحرية التي بقيت طوال العهود القديمة . ويروى انها في طفولتها ، نشأت في سيراناييك ، على ضفاف بحيرة تريتونيس ، حيث وُلدت ، ومنحها زوس ، رفيقة لألعابها ، ابنة الإله تريتون ، حارس البحيرة . لكن هذه البنت الصغيرة ، قُتلت خطأ على يد أثينا . وإقراراً منها بالذنب ، أقامت لها تمثالاً ركزته حد زوس ، وراحت ترفع له التعظيم كما الآلهة . وسمي هذا التمثال « بالاديون » ، وبقي زماناً في الأولمب ثم هبط الى الأرض على قمة ترواد المسماة « قمة آتيه » (أو قمة الخطأ) . وصادف ذلك في حين كان ليلوس (جد الطرواديين) يؤسس مدينة طروادة . ودخل التمثال الى معبد أثينا ولم يكن جاهزاً بعد ، فتمركز في مكان إقامة الشعائر . واذا اعتبر تمثالاً عجائبيّاً ، راح يُعبد في شعائر خاصة ، حتى اعتبر حامي المدينة فلا تقهر طالما هو فيها . وفي ما بعد ، إثر غير مغامرة ، أخذ التمثال الى روما ، وحُفظ في كنيسة فيستا المقدسة . وهناك أيضاً ، اعتبر الرومان الكنيسة مصانة ، طالما ان التمثال فيها .

أما هرمس ، فهو أخو أثينا الأوسط ، وابن زوس من مايا أصغر بنات الثريا . ولد في أركاديا ، داخل مغارة على تلة سيلين . ولدى ولادته ، أحيط بعصيبات ، كالعادة مع المواليد الجدد ، ووضع في عربة لها شكل سرير . لكن الوليد ، لشدة حراكه ، تمكن من فك رباطه ، وذهب وحده

الى تيساليا حيث كان أخوه أبولون يرعى ماشية أدميت . وعلى غفلة من أبولون ، خطف هرمس ١٢ بقرة و ١٠٠ عجل وثوراً ، وعلق في ذنب آخرها غضاً مورقاً ليمحو آثارها على التراب وقادها الى بيلوس في ميسينيا ، حيث ضحى بعجلين وقطعهما ١٢ شريحة . وحين أخفى غنيمته في مكان سري ، عاد الى مغارته الأم . ولدى دخوله ، شاهد سلحفاة ، فأخذها وفرغها ، وراح يشد الى فجوتها حبلاً من أمعاء غنائمه . وهكذا ، ولدت القيثارة .

وراح أبولون يبحث عن ماشيته الضائعة ، فعرّف مكانها بقدرته الإلهية . وقصد الى قمة سيلين متهاً بذلك مايا . لكن هذه ، تبرئة للتهمة ، كشفت عن الطفل المقمط . فركض أبولون يستنجد بزوس الذي أمر هرمس بإعادة الحيوانات المسروقة . لكن أبولون اذ رأى القيثارة في مغارة سيلين ، أقام تبادلاً شرائياً مع هرمس ، فترك له القطيع أخذاً له القيثارة .

بُعِدَ ذلك ، اخترع هرمس المصفار (من قصبة بان) ، وباع اختراعه هذا من أبولون مقابل عصا ذهبية . ثم تعلم من أخيه الفن الإلهي . وهذه الأساطير من طفولته ، توضح الطابع الطقسي لدى الإله : فالعصا الذهبية هي العصا السحرية التي يحمل بها النوم الى عيون البشر ، وهي استخدمها لقتل ارغوس ذي المئة عين ، حارس ايو الذي اقترحته هيرا وهو لم يكن يطيع زوس . وإذ كان هرمس رسول الآلهة ، كان يتنقل صندلاً ذا أجنحة تحمله الى البعيد . وكان من أهم ادواره مرافقة أرواح الموتى الى الجحيم . وكانت صورته على مفترقات الطرق والشوارع ، بشكل عمود كبير . فهو رفيق السياح ودليلهم ، وهو يحمي الرعاة ، وغالباً ما يُصور في التماثيل حاملاً نعجة على كتفيه ، كما « الراعي الصالح » .

لكن شهرة هرمس ، خاصة ، في حيّله . وعنه أخذ ابنه اوتوليوكوس (الجذء الأول لأوليس) حذاقة التحليق . من هنا ان هرمس ، السائح الموهوب في استملاك ارزاق الغير ، بات اله التجارة .

أريس ، هوا بن زوس من هيرا وهواله الحرب المشبع بالدم والمذابح ، ويبدو دائماً مدرعاً متمنطقاً بمجن وسهم وسيف . حوله ، دائماً أربعة شياطين فرسان ، وهم ديموس (الخوف) وفوبوس (الرعب) و اريس (الفتنة) واينيو (شيطانة الحرب) . وليست الأساطير حول أريس كثيرة ، فأبرزها عبادته في تيبا حيث له نبع يحرسه تنين كان ابنه . وحين قدموس ، الآتي إلى اليونان من سورية ، أراد غب الماء من هذا النبع لإقامة تضحيته ، حاول التنين صده . فقتله قدموس ، إنما كان له ، عقاباً ، أن يخدم أريس سبع سنوات . ولدى انتهاء مدة عقابه ، زوجّه الآلهة من هرمونيا ابنة أريس . ومن هذا الزواج ، كانت سلالة العائلة الملكية في تيبا .

وكان يحلو لليونان تصوير أريس مهزوماً ، أمام ذكاء هيراكليس وحكمة أثينا . لذا ، أمام شعب طروادة ، جعلت الإلهة ان يجرحه ديوميد . ولما هيراكليس هاجم سيكنوس ابن أريس ، اراد هذا الأخير أن يتدخل بطلاً ، ففجّرح في ساقه وانسحب من المعركة .

وكان في أثينا مكان يحمل اسمه : قمة أريس ، على سفحها يجري نبع . وفي هذا المكان كان يوماً لأريس أن يبصر هاليروتيتوس ابن بوزييدون ، يحاول اغتصاب اليسيه ، ابنة أريس من أغلوروس . فهب ، دفاعاً عن ابنته ، وقتل هاليروتيتوس . فاستجلبه بوزييدون الى محكمة التأمّت من كبار الأولمبيين ، على تلك التلة نفسها . وبريء أريس ، انما ، للذكرى ، أعطي اسم آريوباج لتلك التلة ، حيث راحت تجتمع في ما بعد ، المحكمة

الناظرة في الأمور الدينية .

أما ديميتيه ، أخت زوس ، وابنة كرونوس وريا ، فأسطورتها من الأجل والأطرف ، بين الأساطير الهيلينية القديمة ، حولها ، يروى ان زوس ضاجعها فحبلت منه وولدت بنتاً اسمها برسيفون . كبرت سعيدة بين الحوريات مع سائر بنات زوس . يوماً ، كانت تقطف زهراً من حقل إينا في صقلية ، حيث يُزرع القمح . وإذ كانت الصبية تنحني لتقطف نرجسة ، انشقت الأرض وخرج منها إله على مركبة يقودها ، عوض الأربعة جياد ، أربعة تنانين . كان ذاك ، هادس أخو زوس ، الكان عاشق برسيفون ، والذي استطاع بحيلة مساعدة من أخيه ، خطفها الى الجحيم لكنها ، وهي تنقاد معه ، صرخت صرخة عظيمة . وسمعت ديميتيه صرخة ابنتها ، فراحت ، قلقة ، تبحث عنها ، انما دون جدوى ، تسعة أيام وتسع ليال دون شرب ولا استحمام ، في كل من يدها مصباح مضاء . وفي اليوم العاشر ، التقت بالالهة ايكات التي سمعت ، هي أيضاً ، صرخة برسيفون ، وشاهدت خاطفها لكنها لم تتمكن من التعرف عليه لأن رأسه كان غارقاً في العتمة . على أن الشمس ، وهي ترى كل شيء ، أدركت الحقيقة ونقلتها الى الأم الثكلي التي ، من غضبها ، أقسمت ألا تعود الى السماء ولا تقوم بمهمات الإلهية ، حتى تعاد ابنتها إليها . فتلبست شكل امرأة عجوز وأتت تقابل الوسيس ، وأمام قصر الملك سيلبيوس كانت تجتمع عجائز المدينة ، اللواتي دعونها الى مجالسهن وتناول الغذاء معهن . لكنها ، من حزنها ، رفضت كل دعوة . فألحت عليها إحدى العجائز ، واسمها بوبو ، ولما كذلك لم تقبل ، كشفت لها عن مؤخرتها وقربتها من الإلهة . فما كان من هذه ، الا ان ضحكت وقبلت ان تأكل . بعدها ، وضعت نفسها في خدمة الملكة ميتانيرا ، سيدة سيلبيوس الأولى التي جعلتها

مرسعة لديها . وعهدت اليها بالطفل ديموفون (ويقال له أيضاً تريبتوليم) ابن الملك . وحاولت ديميتيه جعل الطفل خالداً لا يموت ، فراحت تغطسه كل ليلة ، في حمام من الذهب ، الى ان فاجأتها ميتانيرا ليلة هذا المشهد ، فصرخت مذعورة ، وسقط الطفل من بين يدي ديميتيه التي ، عندها ، كشفت عن حالها . عندها ، أوعزت الى تريبتوليم ، الابن الثاني لسيليوس ، بمهمته أن يجوب العالم معلماً الناس زراعة القمح . فراح تريبتوليم في عربة تجرها تنانين ذات أجنحة ، وهو يبذر القمح وراءه .

ولما كان منفي ديميتيه الإختياري يجعل الأرض عقيمة ، ويخرط نظام العالم ، قرر زوس إعادة ابتها لها ، فأعز ذلك الى هادس ، لكن ذلك كان صار مستحيلاً لأن الصبية برسيفون كانت قطعت حياتها وأكلت حبة رمان من حديقة ملك الجحيم ، وصارت الى الابد مرتبطة بالعالم الجحيمي . وكان لا بد من تسوية : تعود ديميتيه الى مكانها في الأولب ، وتقاسم برسيفون وقتها بين الأولب والجحيم . وهكذا ، كل ربيع ، كانت برسيفون تخرج من عالمها تحت الأرض الى النور ، مع اوائل النباتات التي تظهر في أنلام الحقول ، لكي تعود بعدها من جديد الى العتمة في أثناء البذار . ولكنها ، طالما هي بعيدة عن ديميتيه ، تبقى الأرض عقيمة ويكون موسم الشتاء الحزين .

هذه الأسطورة ، تتخذ أشكالاً عديدة محلية ، وهي دخلت عليها مقاطع جديدة ، وكانت مرجعاً رئيسياً لاحتفالات ايلوسيس المثلثة رموزاً وتحركات رمزية .

كانت ديميتيه اذن ، مرتبطة عضوياً بزراعة القمح . وكان ديونيسوس الإله الذي يجسد قوى الكرمة والخمر . فهو ابن زوس من سيميليه (ابنة قدموس مؤسس تيبا) . ومن إحدى صفات ديونيسوس الروحانية ، انه

« المولود مرتين » ، نظراً لما يحاك حول قصة ولادته : فإن سيميليه ، التي أحبها زوس ، كانت موضع حسد أخواتها اللواتي استهجنّ تصديق انها استسلمت لعشيق سمج ، حتى سرى الشك في قلبها وارادت اثباتاً لألوهة عشيقها ، فطلبت منه أن يظهر بكل مجده ، كما كان يظهر أمام هيرا . أراد زوس الممانعة لكنه عاد فارتضى ، وظهر لها محاطاً بالصاعقة والبرق . ماتت سيميليه من الدهشة ، فأسرع زوس وسحب الجنين من أحشائها ولم يكن الا في شهره السادس ، ووضعه في فخذة . حتى اذا أكمل الجنين مدة الحمل به ، خرج من فخذ الإله كاملاً سليماً .

لكن زوس تضايق في اعالته وتربيته ، لأنه كان يخفي حسد هيرا . فعهد بالطفل سرّاً ، الى اينو ، احدى أخوات سيميليه ، وهي كانت زوجة آتاماس ملك ارخومين في البيوسى . وأوصى بأن يكون لباس الصبي انثوياً ، كي يلتبس الأمر على هيرا ، لكن هذه كشفت الأمر وغضبت على الملك وزوجته فانتحرا . فحمل زوس عندها ولده بعيداً عن اليونان ، الى بلاد نيزا التي لم يكن اليونان يعرفونها جيداً . فيقولونها تارة في آسيا وتارة أخرى في الحبشة . ويبدو أن الاسم وجد لإعطاء اسم للإله الصغير الذي دعي « زوس نيزا » .

وفي هذه البلاد النائية ، نشأ الطفل في رعاية الحوريات وفي شكل جدي (وصار الجدي أحد رموز ديونيسوس) . ولما كبر الطفل ، اكتشف الكرمه والخمر . لكن هيرا ضربه بالجنون حتى راح يحبب العالم طائشاً على غير هدى . فجاب مصر وسورية وصولاً الى فرجيا حيث الالهة سيبيل (احد اشكال ريا أم الالهة) طهرته وشفته من جنونه ودبرته على أسرارها السحرية . وبعد هذه الفترة ، بدأت حياة المغامرات لدى الإله الصغير . وصار يرافقه موكب من الشياطين ، ذكوراً وإناثاً . وأضيف الى هذا الموكب

العجوز سيلين ، ركباً على حصان ، والستران (ج ستر وهو شخص خرافي نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز) التي تمثل الأرواح التهتكية لدى الأرض والخمر . أما ديونيسوس ، فركب ظهر غر وحمل في يده ربحاً في رأسه كوز صنوبر ومزين بأكليل من الزهر . وانطلق من فريجيا غازياً صوب تراسيا ، حيث ليسورغ ، ملك البلاد ، استقبله سيئاً وأراد يأسره . ففتش ديونيسوس عن منفى ، وجده في جوار تيتيس الإلهة البحرية . ولكي ينتقم ليسورغ منه . أسر موكب حراسته من اناث الشياطين ، لكنهن هربن متحررات بقوة سحرية مما دفع بالملك الى الجنون . فتناول فأساً وتوهم أنه يقطع دوالي الكرم فيما هو كان ، في الواقع ، يضرب فخذيه ويتر عضوه الذكر . ولدى صحوته من جنونه ، اكتشف أن البلاد اصبحت بالعقم . ولدى مراجعته العراف ، تبين ان ثورة ديونيسوس لا تهدأ الا اذا مات المذنب ، فأمرت توابع الملك ففسخته وقطعته إرباً .

من تراسيا ، قصد ديونيسوس الهند في موكب جلل . وكثيراً ما عمل الرسامون والنحاتون القدامى على تصوير هذه الرحلة الإحتفالية للإله صوب الشرق ، مما يذكرهم برحلة الإسكندر .

ولدى عودته منتصراً الى اليونان ، حضر ديونيسوس الى البيوسي ، بلاد أمه . لكن « بيتيه » إله تيبا ، تضايق من هذه العبادة الجديدة ، التي كانت تشد النساء الى أزمات ونوبات حادة ، تحملهن الى الرقص في الجبل صارخات مذعورات . فمنع تلك العبادات . وكما الملك ليسورغ في تراسيا ، عوقب « بيتيه » على هذا المنع : وفيما كان يراقب على قمة سيثرون تحركات اناث الشياطين ، تناولته أمه وقطعته إرباً معتقدة أنه أسد . وراح التعبد لديونيسوس يزداد ، ومناهضاته تقاوم بالطريقة نفسها . منها مثلاً بنات الملك برويتوس ، في أرغوس ، اللواتي ضربهن الإله بالهذيان ،

فرحن يتهن في الجبل معتقدات انهن تحولن الى عجلات ، حتى انهن التهمن أطفالهن . وبعد اطاعة القارة كلها ، انطلق ديونيسوس الى غزو الجزر . واذا بالقراصنة الذين استأجرهم ليأخذوه الى ناكسوس ، يريدون بيعه أجيراً في آسيا . لكن المجاذيف تحولت الى حيّات ، وامتلأت السفينة لبالب ، وسمعت أصوات نايات خفية . فخاف القراصنة ورموا بأنفسهم الى الماء فتحولوا حيتاناً .

ولم يبق أمام الإله الا ميدان واحد قبل صعوده الى السماء : الجحيم . فقرر النزول اليه لإيجاد أمه سيميليه ليُشركها في مجده . ومعها ، أخيراً ، بلغ الخلود .

نلاحظ ، على عكس ما لدى سائر الآلهة الأولمبيين ، أن لديونيسوس سيرة حياة متممة ، منذ ولادته حتى خلوده . لكن هذا لا يعني ، كما درج التفسير ، أنه حديث العهد في حلقة آلهة اليونان . فلهذه الأسطورة جذور أخرى غير التي ذكرنا ، وهي أدخلت إدخالاً على الجذور اليونانية . فجميع أساطير الطفولة تبدأ من النواحي الطقسية . ومقاطع تجوَاب العالم تدل على ذكرى العبادات ، في تراسيا ، والمقاومة التي لقيها إنتشارها . فثمة ديانة خاصة خلف تلك الأقاصيص ، مما يعطي الإله شكلاً آخر عما نعرفه لدى الآلهة اليونان الآخر .

في عصر الأولمبيين ، يبدو زوس السيد والمنظّم ، أحياناً تهدد كيانه القوي مؤامرات ، أو ضعافن من كائنات عملاقة أو وحشية ، وهي شهود العصر ، لكنها لا تصمد في وجهه . وثمة حوله عهد أسطوري بكامل أشخاصه . وسبق أن ذكرنا بظروف ولادته : وهو ترك ، طفلاً ، في إحدى مغاور كريت ، على عهدة حوريات إيدا ، اللواتي غذيته بالحليب والعسل ، فيما حوله ترقص إناث الشياطين ، وهن من المحاربات راقصات

الحرب ، يهززن رماحهن صعداً ويتباهين بلعبة السيف والترس . وكان ما يثرنه من صوت عجيب ، يطغى على بكاء الطفل . كما سبق والمحنا الى مراحل وصوله الى الحكم ، وهي تشكل منحى آخر للأسطورة . لكن أكثر المراحل شعبية ، تبقى تلك التي تروي زواجات الإله .

فزوجات زوس ، الشرعيات وغير الشرعيات ، عديدات ولا حصر لهنّ . أولهنّ ، تسلسلاً تاريخياً ، كانت ميتيس ، بعدها أنت تيميس (وهي تجسيد للعدالة) . وهي أعطت الإله ثلاث بنات كنّ الفصول ، وهنّ : إيرينيه (السلم) ، اونوميا (النظام) وديكيه (العدل) . ثم ثلاثاً أخرى كنّ الأقدار ، وهنّ : أترووبوس ، لاكيسيس وكلوتو . وهذا الزواج من تيميس له شكل من أشكال الأسطورة الفلسفية ، ذات المغزى الرمزي . فهي تظهر كيف ان زوس ، القوي ، هو تجسيد حي للنظام الأزلي ، وكيف أن القدر الذي يخضع له ، لا يجد من قوته في شيء طالما ان القدر في النهاية ، تابع منه .

بعد ذلك ، تزوج زوس التيتانية ديونيه ، وهي في بعض الروايات والدة أفروديت ، ثم تزوج منيموزين التي أعطته تسع بنات هن الحوريات التسع . أما من أورينوميه الأوقيانية ، فله ثلاث بنات هن الثلاث النعم : أغلايه وأفرورزين وتاليا ، وهن ، في الأساس ، أرواح النبات في الربيع .

حتى زواجه من هيرا ، أخته ، نوع من الزواج الإلهي ، لكنه كان النهائي والأخير ، لأن زواجه اللاحقة من بشريات ، كانت خيانة لهيرا . وكنا ذكرنا زواجه من ديميته وولادة برسيفون . لكن هذا الزواج من أخت له ثانية ، لا يبدو أثار حسد هيرا ، وهو يرمز الى الأثر الفعال للمطر السماوي على الأرض .

وثمة زواجات أخرى له من بشریات لا تفسیر بدائياً لها . لكن هذه الأساطير تهدف غالباً إلى إقامة أنساب ، ولا تمثل إلا أهمية نسبية ومحلية . من هنا ان الإدعاء الكورنثي الذي قال ان كورنثوس هو « ابن زوس » ، كان غير صادق في سائر بلاد اليونان ، لكن الثابت في ايها كان ، أن السلالات الهلينية الكبرى كانت تؤول في النهاية الى الإله . وهذا ثابت وصحيح خاصة في مدن البيلوبونيز : في أرغوليد (جدة الآتريدين) كان طنطال يُظن ابن زوس من بلوتو . وكذلك الأركاديون كان لهم جدّ أول هو أركاس ابن زوس من الحورية كاليستو . وهكذا اللقدميونيون كانوا يقولون انهم أولاد زوس من الحورية تاييجيته ، إلهة قمة تاييجيت . وثمة ، في أرغوليديا ، أن زواج زوس تجدد غير مرة : فالبطل أرغوس قبل ابن زوس من نيوبيه الأرجية ، وكذلك بيلاسغوس جد الشعب قبل الأكي . ومن زواج زوس وداناييه ، كانت ولادة بيرسيه التي جعلت في أرغوليديا نسباً جديداً للإله . وفي ثيبا ، كان قدموس يتنسب إليه بواسطة ايبافوس وإيو . وكان الكريتيون يذكرون أوروبا والثلاثة الأبناء (مينوس ، ساربيدون ورادامانت) من الاله مينوس . أما في فتوتيد وجزيرة ايجين ، فسلالة بيليه وسلالة تيلامون ، هما من « إياك » إسن زوس من الحورية ايجين . والطرواديون أنفسهم متحدرون من داردانوس ابن زوس من الثريا إلكترا . وهذه النسب ، كما نرى ، تنطبق على أقدم السلالات في اليونان وعلى العائلات الملكية التي تحتفظ بلقب النبل وتبرر وجودها وأنسابها . واللافت أن الذين أعطوا أسماءهم الكبرى لسلالات الإثنية اليونانية القديمة ، كما أكايوس ، وايون ودوروس وأيلوس ، ليس زوس اباهم بل هم تحدروا من دوكاليون وبيرا . والدوريون ، آخر سلالات الشعب اليوناني ، كانت لهم أسطورة خاصة بهم : حين كانوا لا يزالون يسكنون

شمالى اليونان البرية ، حصل ملكهم ايجيبيوس على مساعدة هيراكليس ضد اللايبيين جيرانه . مقابل ذلك ، أعطى البطل ثلث مملكته ، لكن هذا الأخير طلب منه منح ذلك بإسم أحفاده . من هنا أن هيلوس ابن هيراكليس ، هو الذي اعطى اسمه لأحدى الثلاث القبائل الدورية ، فيما الإثنان الباقيتان تحملان اسم ديماس وبانغيلوس ، ابني ايجيبيوس . لذا ، فثلث الدورين يتعلق بواسطة هيلوس ، بهيراكليس والهيراكليين ، ومن ثم بزوس ، والد هيراكليس .

ثمة زيجات كثيرة لزوس مع البشرات ، تمت في صورة جيوانية : فمع أوروبا ، اتخذ الإله صورة ثور ، ومع ليذا صورة أوزة ، أو ان عشيقات اتخذن هيولات مماثلة : فصارت الحورية كالستودبة ، وصارت إيودبة . وقد يكون في هذه المغامرات ، اسم زوس موضوعاً في أساطير موغلة في القدم ، اتخذ فيها الإله صور حيوانات أو صور تأليه ، مما يفسر « مطر الذهب » الذي اخصب داناييه في شجنها ، ومرّ ذلك على انه « تجسيد » الإله . وكان اليونان يعتقدون ان زوس اخترع هذه الأشكال ليلتبس الأمر على هيرا ، أو ان هذه ، عقاباً لعشيقات زوجها ، جعلت لمن تلك التغيرات الهولانية . وبقيت داناييه أقوى من كل التغيرات لأن الذهب لا يقف في وجهه جدار ولا قفل .

ومهما يكن ، يبقى عهد زوس هو الذي يجمع في عصره أكبر عدد من العناصر ذات الجذور المختلفة ويكشف عن أعرق طبقات الديانة الهيلينية (اليونانية القديمة) : فزوس الكرיתי ليس أصلياً ولا مشابهاً ، في مبادئه ، لزوس الأركادي أو زوس الفريجي .

والأساطير المتعلقة بكل من هذه الشخصيات ، تشابهت ، لكنها ، رغم هذا ، لم تتوصل الى ثبوت ولم تصل بعد حد اللاهوت .

الفصل الرابع

العصور البطولية الكبرى

مقابل تشوش العصور الأسطورية التي للآلهة ، تتجلى العصور البطولية روايات مغامرات تتجمع فصولها في تأن ، لتشهد على تفتح طابع أدبي بحث ، وعلى ضآلة ما وصلنا عنها من أشعار أو قصائد ملحمة . أما الملاحم الهوميرية فشواذ عن القاعدة ، رغم كونها مختارات حول فترة معينة متأخرة وسط تقاليد مختلفة المصادر . من هنا ان لم يصل سوى بعض المقاطع الباردة من « الأناشيد القبرصية » أو « الإلياذة الموجزة » (وضعها ليشيس) ، اللتين تسردان مقاطع ثانوية من المغامرات والبطولات الطروادية . وكانت ، ثمة ، مجموعة من القصائد الشاهدة « ضاع أكثرها) ، وأبرزها « الأوديسيه » الهوميرية . وفي عرض لأبرز العصور البطولية ، ثمة « مادة أسطورية » أكثر تحرراً من جذورها الدينية . ومن جهة ثانية ، تتمثل فيها الأساطير المسببة والعناصر الفولكلورية ، إنما تغلفها توسيعات جانبية روائية أو ذات ميول خلقية ورمزية .

على اننا لن نتوقف هنا الا عند ستة عصور كبرى ، أوجت بأكثر الآثار الأدبية وبقيت هي الأشهر . انها : غزوة الأرغونيين (بحارة سفينة أرغو) ، العصر الثيبى ، عصر الاتريديين ، عصر هيراكليس ، عصر

تيزيه ، وأخيراً مغامرات أوليس . وهذه المجموعة من الأساطير تغطي نطاقاً جغرافياً يمتد تقريباً على كل العالم الهيليني ، بدءاً من الطرف الشمالي للبحر الأسود ، حتى سيرينايا ، مع أسطورة الأرغونيين ، من ضفاف الادرياتيكي حتى طروادة وسورية وكرت ، مع اساطير أوليس وقدموس والاتريدين . ولوحظ أن هذه العصور التاريخية تتعلق جميعها بعهد الحضارة الميسينية ، وتوقعها مناسب لمدينة وجد فيها علماء الآثار دلائل تثبت هذا العهد . جائز اذن ، وربما أكيد ، أن تكون هذه العصور انعكاساً لأحداث تاريخية . انها تقدم لنا ، على طريقتها ، جدول حضارة ثابتة الوجود . أما العناصر الروائية والمدهشة فيها ، فلا يجب أن تخفي هذا الطابع . وإذاً - خلف مغامرات هرمس طفلاً أو افروديت - يجب البحث في الخصائص الطقسية او النعوت الدينية ، فخلف مغامرات آشيل واغاممنون وجازون ثمة ذكرى الهجرات والصراعات التي يجهلها التاريخ أو نسيها .

أما عهد الأرغونيين ، فقام حول شخص جازون وهو بطل تيسالي من سلالة أيولوس . أبوه أيزون كان يحكم ايولكوس على سفح قمة بيليون . لكن أيزون خلعه أخوه (غير شقيقه) ، بيلياس ابن بوزييدون ، فاضطر للجوء الى المنفى . وكما أغلب الابطال الأسطوريين ، نشأ جازون في كنف شيوخ السنتور الذي علمه ، بين العلوم ، علم الطب . ولما بلغ سن الرشد ، ترك جازون سيده السنتور ، وتقدم ، مجهولاً ، من بلاط ايولكوس . ولدى وصوله ، كان لباساً غريباً : ملفوفاً بجلد غمر ، في كل يد حربة ، ورجله اليسرى عارية على عادة محارب الايتوليين القدماء . ساعتها ، كان عمه ، في البلاط ، يقدم تضحية . فلما رآه ، تذكر بيلياس

العراف الذي كان نصحه بالحذر من الشخص ذي النعل الواحد . فاستقدم إليه السائح وسأله اي عقاب يفرضه على شخص يتأمر على ملكه . فأجاب جازون انه يرسله في البحث عن الجزة الذهبية . فبادره بيلياس عندها أنه (أي جازون) هو الشخص المذنب وأنه حكم على نفسه بالموت . فلم يكن على هذا الأخير إلا الانصياع والذهاب في رحلة البحث .

وتلك الجزة النادرة ، وبحثها كان صعباً ، كانت جزة كبش إلهي ذي جناحين كان هرمس أهدها الى نيفيليه أولى نساء الملك أتاناس الذي اختاره زوس مريباً لديونيسوس في أوركومين . وحين إيو ، ثاني نساء الملك ، نالت بطرائقها أن يُعاقب فريكسوس وهيليه ، ابنا نيفيليه ، لتجنّب البلاد عقماً أكيداً ، كانت نيفيليه قدمت لهما الكبش الإلهي الذي حملهما في الأجواء . أما هيليه ، فسقطت في الطريق وغرقت فيما هي تحتاز المضيق الذي حمل من يومها اسم بحر هيليه .

أما أخوها فريكسوس فوصل سالماً الى كولشيد (في مقاطعة الكوكاز) حيث ضحى بالكبش أمام زوس وخصص جزته (وكانت من الصوف الذهبي) لأحدى غابات آريس المقدسة . فما كان من ملك كولشيد ، آيتيس (وهو كورنثي راح يبحث عن الثروة على ضفاف البحر الأسود) الا أن احتفظ - حسداً - بتلك الجزة . . . هذه هي المجازفة ، في الرحلة التي فرضها بيلياس على جازون .

لاستكمال مهمته ، بدأ جازون بالإستعانة بأرغوس ، ابن فريكسوس . وبناء على نصيحة أثينا ، بدأ أرغوس بيني سفينة شراعية دعيت « سفينة أرغو » ، وكانت لها خصائص ممتازة ، منها أن مقدّمها كان

جذع سندیانة دودون النبوة ، كانت الالهة (دودون) وهبتها الكلام ، حتى بات في إمكانية السفينة أن تنبأ . وفيما كانت هذه تُصنع ، كان جازون يحاول جمع ما أمكنه من رفاق ، سباهم استقصاء كتاب الأساطير والشعراء « الأرغونيين » أو « بحارة أرغو » ، وجعلوا عددهم كبيراً . وبينهم نجد اسما أبرز أبطال العصر السابق لحرب طروادة ، وهؤلاء هم آباء المحاربين الآخرين رفاق آغاممنون وآخرين من العصر الثيبي ، كما الكاهن العراف أمفياروس . وثمة تقليد ، ربما متأخر ، يُدخل معهم هيراكليس ، وحتى ابنه هيلوس كذلك . لكن الارغونيين الأكثر شهرة ، والذين لعبوا دوراً فعالاً في المغامرة ، هم : المغني تراس أورفيه ، وكالاييس وزيتيه ابنا بوريه ، ثم كاستور وبولوكس ابنا تندار ، وأنسابؤهم الذين أبرزهم ايداس ولينسيه ابنا آفاريه . أما الكاهن العراف الرسمي للرحلة ، فكان ايدمون ابن آباس الأرجي .

وابتدأت الرحلة الطويلة في ظروف مؤاتية . وكانت النبوة أن يعودوا جميعهم سالمين ، إلا ايدمون . المحطة الأولى : جزيرة ليمنوس التي عهدئذ ما كان فيها سوى نساء ، كنّ ، أثر لعنة من أفروديت، قتلن جميع رجال الجزيرة وصرن في حيرة من أمر استمرارية نسلهن . لذلك استقبلن الأرغونيين في حفاوة كبيرة ، مما جعل هؤلاء يبذرن فيهن أطفالاً . بعد ذلك ، توجهوا الى بحر هيليه ، حيث استقبلهم سيزيكوس ملك الدوليونيين ، في حفاوة هو أيضاً . انما ، في الليلة التالية ، حين أقلع الأرغونيون مغادرين ، هبت رياح بحرية أرغمتهم على الرجوع الى مملكة سيزيك . لكن الدوليونيين لم يتعرفوا اليهم ، هذه المرة ، واعتقدوهم قراصنة فهاجموهم . فهرع الملك سيزيكوس على الضجة . وفي زحمة

المهاجرين ، قتله جازون . ولدى الفجر ، عرف الفريقان خطأهما . وطوال ثلاثة أيام أقام الأرغونيون مأتماً احتفالياً للملك ، وأطلقوا صرخات انتحاب وقاموا بالعباب جنازية .

بعد ذلك ، ارتحل الارغونيون الى ميزيا . وفيما كان رفاق هيراكليس يهيئون طعاماً ، وكان هو كسر مجذافه لقوة تجذيفه ، فذهب الى الغابة يقطع شجرة ليصنع مجذافاً آخر . وكان الفتى هيلاس خادماً لهيراكليس ، فذهب يبحث في الغابة عن مياه عذبة . فالتقى الحوريات على ضفة نبع ، يرقصن في جنون . فوجدنه جميلاً فجذبته الى النبع حيث غرق وصرخ صوت استغاثة قوياً سمعه هيراكليس فنادى أرغونياً آخر يدعى بوليفيم راح معه يفتش عن صديقه هيلاس . وبقياً يفتشان في الغابات طوال الليل ، وعند الصباح ، ابهرت السفينة ولم يكونا عليها ، فأكمل الأرغونيون رحلتهم بدونها ، كما جاء في النبوة ، أن لا يشترك هيراكليس وبوليفيم في البحث عن الجزرة . وأسس بوليفيم في الجوار مدينة سيوس ، فيما هيراكليس أكمل وحده مغامراته واكتشافاته .

وصل الأرغونيون الى بلاد البيبريسيين ، حيث اضطر بولوكس الى مقاتلة الملك اميغوس فغلبه ، وفي اليوم التالي لقت عاصفة بحرية السفينة أرغو فاضطرت الى الرسو على شاطئ تراسيا في مملكة فينيه . وكان فينيه كاهناً عرافاً أعمى لعنه الآلهة ، بعقاب أن كلما وضعت أمامه طاولة عليها مأكـل ، تهجم فوقها طيور كاسرة تأكل ما عليها ، وتوسخ ما يتبقى منها . وسأل الأرغونيون العراف عن مخرج رحلتهم ، فرفض مساعدتهم قبل ، ان يخلصوه من تلك الطيور الكاسرة . فهب كلايس وزيتيه ، وكانت لهما أجنحة ، في أثر تلك الطيور فلقياها فوق جزيرة ستروفا ، فجعلاهما

تقسم على عدم اهانة الملك . عندها كشف فينيه المستقبل للبحارة ، وحذرهم من الصخور الزرقاء ، التي يخشى ان-تكسر سفينتهم وتغرقها اذ كانت من مجموعتي صخور تتلاطم كلما مرت بينها سفينة .

وبالفعل ، لدى اكمالهم الإبحار ، وصل الارغونيون الى تلك الصخور . ولمعرفة مشيئة الآلهة ، أرسل البحارة حمامة ، ذهبت رأساً الى الصخور ، فانضمت كما دائماً ، ولم تدهس الاريشة من ذنب الحمامة . تشجع الأرغونيون وحاولوا العبور . فانضمت الصخور من جديد لكنها لم تلحق إلا بأخر قطعة من الكوئل (مؤخر السفينة) فجرحتها قليلاً . ومن يومها ، صارت تلك الصخور جامدة لا تتحرك إذ جاء في حكم القدر انها تتجمد فور عبور سفينة بينها دون أذى . هكذا كان دخول الارغونيين الى البحر الأسود . وبعد محطات غير كثيرة ، بلغوا كولشيدا لدى آيتيس فعرض جازون للملك غاية الرحلة ، فلم يتمنع آيتيس عن إعطائه الجزة ، لكنه فرض شرطاً : ان يقوم البطل ، دون أية مساعدة ، بتثبيت النير على رقبتى ثورين ينفشان ناراً من منخريهما . وكان ذاك الثوران هديتين من هيفايستوس ، ولهما قوة عظيمة . وظن الملك انه بذلك يقضي على جازون . لكنه فشل اذ نجح البطل بذلك . ففرض عليه الملك ثانية أن يقوم مع هذين الثورين بحراة حقل وزرع أضراس التين آريس فيه .

وحار جازون في أمره وكيف يمكنه القيام بهذا العمل مع وحشين هائلين . واذ هو في حيرته ، هرعت الى نجلته ابنة الملك ، واسمها ميديا وكانت تحبه كثيراً . فأعطته بلسماً سحرياً يمسح به جسده فيقيه من الحرائق . فتوصل جازون الى زرع الأضراس ولحم الثورين . فإذا من أضراس التين المزروعة ، يخرج حصاد بشري : عدد من محاربين مدججين

بالسلاح . فرمى جازون حجراً في وسطهم ، فأتهم المحاربون بعضهم بعضاً بالحجر ، واقتتلوا حتى أبيدوا .

مع كل هذا ، لم يف اييتيس بوعده ، وكان على أهبة أن يحرق السفينة ، حين توصل جازون ، في مساعدة ميديا ، الى أخذ الجزة والهرب بها ، أخذاً معه الصبية التي حملت معها أخاها أبسريتوس . لكن الملك ، غاضباً على هذا المقلب لحق بهم . ولتاخير ، قتلت ميديا أخاها ونشرت أعضائه في البحر ، فلقبها الملك فأمضى في جمعها كلها ، متأثراً ، وقتاً طويلاً تعذر عليه بعده اللحاق بالسفينة . لكنه جيش لذلك فرقاً أمرها باللحاق بها وبالأ تعود دونها والا قتل جميع جنود تلك الفرق .

لكن الارغونيين ، في هذه الأثناء ، كانوا غيروا طريقهم صوب الدانوب مكملين الى البحر الأدرياتيكي . وظنوا النهر ممراً بين بحرين ، وأن نهر البو يجمع الادرياتيكي مع الرون وبلاد السلتيين . ومن مدخل الرون ، بلغ الارغونيون المتوسط . ومن صوت السفينة ، فهموا أن زوس غاضب جداً لقتل ابسريتوس وأن عليهم تطهير ذواتهم لدى الساحرة سيرسيا وهي أخت آيتيس وعمه الصبي وميديا . ونظراً لاضطرارهم الى الطاعة ، شططوا في بلاد سيرسيا (على الشاطئ الإيطالي) ، فظهرتهم وعادت السفينة تكمل رحلتها البحرية . ولدى اجتيازها بحر الجنيات البحرية ، غنت أورفيه ميلوديا جميلة اسكتت الجميع وصمتهم عن سماع الجنيات . وعند اجتيازهم مضيق مسينا ، وصلت السفينة الى جزيرة الفياسينيين ، حيث التقى الارغونيون عدداً من الكولشيديين مطارديهم . لكن السينوس ، ملك الفياسينيين رفض تسليمهم فقاد الارغونيون الى اكمال رحلتهم البحرية . وحملتهم عاصفة قوية الى ضفاف « سيرتا » على الشاطئ الليبي ،

فاضطروا ، ليحتموا ، أن يحملوا زوارقهم على أكتافهم حتى بحيرة تريتونيس ، وقام اله البحيرة ، تريتون ، ودلهم على مخرج يمكنهم منه الخروج الى البحر . ومن هناك ، أرادوا بلوغ كريت ، لكن العملاق تالوس ، ذا الجسم البرونزي ، منعهم من بلوغ الجزيرة . وإذا بميديا ، من حيلة أنثوية سحرية ، تجعل تالوس يكسردساره على الصخور ويموت . فقطع الارغونيون الشاطئ بعدما رفعوا ذبيحة لأثينا . وبعد عدة ايام في البحر ، عادوا الى اليونان ، فتوقفوا في ايجين ، وابتحروا من جديد الى ايولكوس حاملين الجزة الذهبية .

لكن مغامرات جازون وميديا لم تنته ، فقررت ميديا الانتقام من بيلياس ، فتقدمت من بناته واقنعتهم أن في امكانها إعادة والدهن الى شبابه . فقبلن فقطعت كبشاً الى إرب ووضعت في مرجل يغلي ويحوي حشائش سحرية ، فخرج من هذا نعجة صغيرة . فتحمست البنات ، وجئن بوالدهن فوضعهن في المرجل بعد تقطيعه ، لكن بيلياس . . . لم يولد ، بل مات الى الأبد .

بعد هذه الجريمة ، حلت اللعنة من ايولكوس على جازون وميديه ، فانسحبوا الى كورنثيا حيث عاشا زمناً الى أن قرر كريون ملك البلاد ان يزوج ابنته الى جازون ، فاضطرت ميديا الى الانحاء ، وقدمت لضررتها وشاحاً ممتلئاً سماً أحرقها وأحرق معها القصر وما فيه ومن فيه . ولاكمال ثأرها ، قتلت ميديا اولادها من جازون ، وطارت في عربة ذات أجنحة . وفي أواخر حياتها ، بعد رحلة الى أثينا حد ايجيه والد تيزيه ، عادت الى كولشيد حيث أعادت الملك الى آيتيس الذي كان أخوها برسيس انتزعه منه .

ليس في العصر الشيبى وحدة كما في سواه ، وهو ليس في شكل سرد متواصل ؛ انما ذو تنابيع مقاطع متفرقة .

أول هذه المقاطع ، يدور في سوريا ، مع خطف أوروب . وهذه . كانت ابنة أجنور ملك صور^(١) . ذات يوم ، وهي تلهو على رمال الشاطئ مع رفيقات لها ، خرج ثور من الأمواج ، وهرع خائراً على قدميها ، مما أخافها كثيراً ، ثم هدأت فداعبته وامتنطت ظهره ، فهب نحو البحر ماخراً إياه حتى غورتين في جزيرة كريت حيث تغير شكل الثور هيلانياً ، فإذا هو زوس ، عشيقها الذي قام بهذه الخدعة ليخطفها . وانجبت أوروب لعشيقتها ثلاثة أولاد : مينوس ، ساربيدون ورادامانت . ولدى الخطف ، أوعز أجنور الى أولاده أن يذهبوا الى البحث عن أختهم ، مهدداً الا يعودوا قبل ايجادها . بين هؤلاء ، كان قدموس الذي ، لشدة ما فتش عبثاً ، ويائساً من أيجاد أخته ، لجأ الى عراف دلف . فكان الوحي أن يترك حملة تفتيشه العقيمة ، ويؤسس مدينة . ولكي يحدد هذه ، كان عليه أن يتبع بقرة « تحمل شعار القمر » ، الى أن تسقط البقرة منهوكة . واذ كان يجتاز فوسيد ، رأى بقرة تحمل على خاصرتها صورة قمر أبيض ، فتبعها حتى بلغت البيوسى ، حيث ستقوم ، في ما بعد ، حاضرة ثيبا . وهناك ، كان نبع يسمى نبع آريس ، يحرسه تنين صرعه قدموس . فظهرت له أتيننا ونصحته بأن يزرع في الأرض اضراس التنين . فخرج منها محاربون مدججون راحوا يتقاتلون ، حتى لم يبق منهم سوى خمسة أسسوا سلالة السبارطيين (الرجال المزروعين) . وعقاباً له على قتل التنين ، اضطر قدموس^(٢) الى خدمة آريس سبع سنوات . ولدى انتهاء المدة ، تزوج ابنة

(١) ويقال أيضاً ، لهذا الملك اللباني ، أشنار . (المترجم)

(٢) جاء في الرواية اللبنانية لهذه الأسطورة ، ما يلي : « لما اختطف زوس ، كبير =

آريس وأفروديت ، الإلهة هرمونيا التي وهبها إياها زوس نفسه .
وفي أواخر حياتهما ، غادر قدموس وهرمونيا مملكة ثيبا لأولادهما وهاجرا
الى ايليريا حيث حكم قدموس شعب الإنكيلين . بعدها ، تحولا الى
حيتين ، وزحفا حتى بلغا الجنة .

أما سلالة قدموس ، فأكملها حفيده لابداكوس وبعده ابنه لا يوس .
وفي قصر لا يوس ، وقعت مملكة ثيبا بين أيدي المغتصبين ، فنفي لا يوس الى
ايليديا في جوار الملك بيلوبس ، حيث عشق ابن هذا الأخير ، وكان حليفاً
وجيلاً ويدعى كريسبيوس ، فكان اللواط . ولما أدرك بيلوبس بشذوذ
لا يوس ، لعنه وطرده . وكان غاصبو ثيبا ماتوا ، فعاد إليها لا يوس مستعيداً
مملكته . لكنه ظلّ حاملاً فيه لعنة بيلوبس ، وكان عراف دلف أنباء ان بات
ممنوعاً عليه الإنجاب . ولو هو فعل ، لقتله وليده وكان ذلك عامل ويل على
عائلته . لكن لا يوس لم يقتنع ، وأنجب أوديب - اثنا - حذراً من النبوءة -
أمر بترتيته في الجبال . وكان ثقب عرقوبيه وضمها الواحد الى الآخر ، ومن
هنا اسمه ، لأن كلمة أوديب تعني « الرجلان المتفتختان » . على أن
أوديب لم يمت كما تمنى والده ، إذ احتواه رعيان ملك كورنثيا (أو
سيسيون) ، بوليبوس ، وربوه في بلاط الملك الذي وزوجته بيريبوا ،

== الآلهة ، اورب ، بنت ملك صيدون ، لحق بهما قدموس الى بلاد
الأغارقة . وفي البيوس قتل تينياً كان فنك باثنين من رجاله . وبأمر إلهة
الحكمة ، بذر أضراره في الأرض ، فأنبتت رجالاً شاكبي السلاح اقتتلوا إلا
خمساً أصبحوا في ما بعد نبلاء ثيبا ، أولى مدن مئة واحد سوف يبنوها
ق.موس .

واورب هي التي أعطت الغرب اسمها كما أعطاه قدموس حروف الهجاء ،
وهكذا كانا الواحدة رسالة الحب والآخر رسالة المعرفة . (عن تصدير
« قدموس » ، لشاعر لبنان سعيد عقل) (المترجم)

اعتقدهم الطفل والديه الحقيقيين . وإذا هو على هذا الإعتقاد ، حتى يوم جاء أحد الكورنثيين الكان على خلاف مع أوديب ، فهمس له انه ولد متبن فقرر اوديب عندها الذهاب الى عرّاف دلف لاستنطاقه الحقيقة . ولديه ، فهم الحقيقة ، إذ على مفترق بوتنييه ، التقى الملك لايوس في طريق ضيق . فأمره نذير لايوس أن يفتح له الطريق ، لكن أوديب لم ينصع للأمر فقتل له النذير أحد أحصنته ، فما كان من أوديب الا أن قتل النذير وسيده .

وكان أوديب لا يعرف مدى خطورة جريمته ، فأكمل طريقه نحو ثيبا ، حيث بلغ السفنكس (كائن اسطوري نصفه أسد والآخر امرأة) وكان يطرح أحاجي على المارة ويفترس الذين منهم لا يعرفون الجواب . أما أوديب فحلّ جميع الأحاجي فكان أن ارتقى السفنكس على الصخور فمات . عرفاناً منهم بالعمل ، أقام الثيبيون هذا الغريب ملكاً عليهم ، وزوجوه جوكاست زوجة لايوس . لكن الطاعون عمّ المدينة ، وقال العراف أنه ستفتشى فيها حتى يُعاقب قاتل لايوس . وانكشفت حقيقة القاتل ، ففقأ أوديب عينيه ندماً وعمي ، فانتحرت جوكاست شنقاً . ولم تشف اللعنة ظمأها ، فكانت ويلات كثيرة على الجيل الذي تلا .

وبعد فقدته نظره ، ذهب أوديب في منفى اختياري ، لم يرافقه إلا ابنته الصغرى انتيغون . وانسحب الى كولونا في أعماق اليونان ، تحت حماية تيزيه ، تاركاً في ثيبا ولديه ايتيوكل وبولينيس اللذين قررا ان يحكما بالتناوب . الأول في الحكم كان ايتيوكل ، فابتعد أخوه عاماً رجع بعده ليفاجأ بأخيه يرفض تسليمه الحكم ، ويطرده من المملكة ، فهرب الى أرغوس ، في جوار ادراست ، وانهمك في تجهيز فصائل قوية يستعيد معها

حقوفه . ومن هنا كان أصل حرب السبعة القادة ضد ثيبا .

في جيش بولينيس ، اضافة الى أدراس ، كان تيديه الكاليدوني وهو أيضاً منفي ، وكان كابانيه وايوميدون الأرجيان ، وبارتينواوس الاركاادي ابن ميلانيون وآتالانت ، وأخيراً كان امفياروس أحد أبناء العائلة المالكة في أرغوليد . وكان هذا الأخير يعرف ان المعركة خاسرة لكنه اضطر الى الإشتراك بها مرغماً من زوجته ايريفيل التي كان أقسم على طاعة أوامرها ، والتي كان بولينيس رشاهها بعقد إلهي كانت لبسته هرمونيا في عرسها مع قدموس .

على طريق المعركة ، أسس السبعة القادة ، الألعاب النيمية ، وبلغوا ثيبا ، فتلقوا الأوامر أن يضرب كل منهم باباً من سبعة أبواب المدينة . وما أن بدأوا الهجوم حتى أبعد جيشهم كله ، الا أدراس نجا بفضل سرعة حصانه أريون . وسقط ايتيوكل وسقط بولينيس اذ هما اقتتلا .

وبقي كريون ، شقيق جوكاست ، سيد الموقف ، فأمر بأن تعاد للتبيين كرامتهم ، فحملت جثة ايتيوكل وبقيت في مكانها جثث الأعداء . لكن انتيغون رفضت ترك جثة شقيقها بولينيس دون مدفن ، فنشرت على جثمانه بعض الغبار ، وهذه بادرة طقسوية تعيد الى الدين بعض اعتبار . ومن أجل هذا ، اعدمها كريون بالقائها حية في مقبرة اللبداسيديين . لكنها انتحرت شنقاً في سجنها قبل تنفيذ الحكم ، وهامون ، خطيبها وابن كريون انتحر فوق جثمانها حزناً عليها .

رغم هذا ، لم تكن مصائب ثيبا انتهت بعد . وقام أبناء السبعة القادة ، فاعادوا معركة آبائهم بتحريض من أدراس . فكانت حملة الافيغونيين التي

قام بها جيش اصغر من السابق انما بتحضير أقوى . فهزمت ثيبا وتبدد أهلها
وامحت من لائحة المدن اليونانية . لذا ، الملاحظ أن جدول « الإلياذة » لا
يذكر ثيبا ، بل اسماً آخر لها هو لمدينة لاحقة لأطلال القلعة . وشاءت
التقاليد أن تكون حرب الابیغونيين جرت قبيل حملة الأتريديين ضد
طروادة .

إن عصر الاتريديين يتعلق هو أيضاً بـ « بيلوبس » الذي لعنة منه جعلت
حصول الكوارث التي ميزت هذا العصر .

وكان لبيلوبس وزوجته ايوداميا ، ولد اسمه أترية متحدر من طنطال
ومن ثم من زوس . وله ، بين أخوته ، أوسط يسمى تيبست يكرهه حتى
الموت ، كرهاً هو حصيلة اللعنة الأبوية . وكان الأخوان ، بتحريض من
ايوداميا ، قتلأ أخاهما الأصغر كريسيبوس - الكان أحبه لا يوس وتلاوط
معه - فلحقتهما لعنة أبيهما . فهربا والتجأ الى ميسان قرب ستينيلوس الذي
أعطاهما مقاطعة من بلاد الأرغوليد هي مدينة ميديه . وفي ما بعد ، عند
موت أوريستيه ابن ستينيلوس . قرر أهل ميسان اختيار أحد ولدي
بيلوبس ملكاً عليهم . وكان على الأخوين أن يعددا ، أمام الأهالي ،
المعطيات التي تؤهل واحدهم أن يستلم الملك . وكان أترية وجد بين
قطيعه ، نعجة ذات جزء من ذهب ، فأخذها ووضعها في صندوق .
واقترح تيبست أن يكون من الأخوين ملكاً الذي يملك جزء من ذهب ،
فقبل أترية الاقتراح فوراً ، فرحاً ، غير مدرك أن زوجته آيروبيه التي كانت
عشيقة بريست ، أخذت الجزء من صندوق زوجها وأهدتها الى عشيقها .
وعند الإثبات ، حمل تيبست الجزء الى الأهالي ، فانتخبوه . مع أن
عجوبة - غروب الشمس في المشرق - امرت أن ارادة الالهة في جعل أترية

ملكاً ، فكان أن انتصر هذا الأخير على أخيه واستولى على الحكم ، فقام بينهما صراع خفي ، فقتل أتريه ثلاثة من أبناء تبيست انجبتهم له حورية ماء ، وقدمهم في أثناء مأدبة لوالدهم . وبعدما أكل تبيست ، حمل أتريه اليه رؤوس أولاده وكشف له حقيقة الغذاء الذي تناوله . ثم نفاه فالتجأ إلى سيسيون غير مفكر الا بالثار . وبناء على نصيحة أحد العرافين ، تزوج ابنته بيلوبيا دون أن يفصح لها عن نيته ، ورزق منها ولداً اسماه ايجيست . ثم جعل ان تتزوج بيلوبيا عمها أتريه الذي أهتم بتربية الطفل غير مدرك من أبوه . ولما كبر الصبي ، أوكل اليه أتريه مهمة قتل تبيست . لكن ايجيست اكتشف في آخر لحظة سر مولده ، وأحجم عن قتل ابيه ، ولدى عودته الى ميسان ، قتل عمه أتريه وسلم الحكم لأبيه تبيست .

ترك أتريه ولدين ، هما أغاممنون ومينيلاس ، أصلاً الأتريديين في الملحمة وفي الروايات المأساوية . ومع هذا الجيل ، يدخل ذاك العصر في المغامرة الطروادية ، ليبقى الموضوع الأهم فيها هو الكره المتبادل بين ولدي بيلوبس ، والذي سيولد ، بعد ، كوارث عديدة . أما أغاممنون ، فراح يتبع نسل تبيست ، ومنه طنطال (على اسم جده) السكّان تزوج كليتمنستر إحدى بنات تندار . فإذا بأغاممنون يقتل طنطال في الوقت الذي ولدت له زوجته طفلاً ، وتزوج كليتمنستر . وهذا الزواج الذي جاء في ظروف سيئة ، كانت نهايته مأساوية إذ قام ايجيست بقتل أغاممنون .

وأما مينيلاس ، شقيق أغاممنون ، فأراد الزواج من ايلين ، أخت كليتمنستر . وهي كانت ابنة تندار حاكم سبارطه ، وليدا زوجته ، لكن كلاً منهما يعلم أنها مولودة من بيضة - باضتها أو حضنتها ليدا - وأن أباهما الحقيقي هو زوس الذي تزوج أمها في شكل بجعة . واذ كانت ابنة زوس ، من الطبيعي أن تكون ايلين رائعة الجمال ، يتقدم لطلب يدها أهم

ملوك اليونان . وعلى نصيحة من أوليس ، طلب تendar من طالبيها ان يساندوا جميعهم ذاك الذي تختاره ايلين من بينهم . ووافقوا فاختارت مينيلاس أغناهم .

ولبعض الوقت ، عاشت ايلين هادئة في سبارطة وولدت لزوجها بتناً سميها هرميون . وفي هذه الأثناء ، قامت مشادة في الألب بين الإلهات . ذلك ان إريس (رمز الفتنة) كانت رمت تفاحة من ذهب في مجلس الآلهة ، مقترحة أن تكون للأجل بين الثلاث الإلهات : أثينا وهيرا وأفروديت . ولم يشأ أحد في الألب ان يقرر ذلك ، فقام زوس يكلف هرمس قيادتهن الى ترواد حيث كان باريس الراعي (ابن الملك بريام) يرعى قطيعه . وبدأت كل منهن تعرض قضيتها عليه ، مقدمة له وعوداً . فوعده هيرا بتسليمه امبراطورية آسيا كاملة ، ووعده أثينا بالحكمة والانتصار في معاركه . أما أفروديت فاكتفت إذ وعده بحب ايلين سيدة سبارطة . فقرر باريس ان أفروديت هي الأجمل . عندها ، جاء الفرّيجي الى بلاط مينيلاس حيث استقبل في حفاوة ولما اضطر مينيلاس للذهاب الى كريت مشاركاً في جنازة جده كاتريه - ترك ضيفه في عهدة زوجته ايلين التي - بإرادة أفروديت - إنجذبت إليه فجمعت كل حليها وابتهرت الى ترواد تاركة هرميون الطفلة .

لدى عودته ، استدعى مينيلاس أخاه وقررا تذكير الملوك اليونان بالوعد الذي قطعوه فوفوا به مساندين مينيلاس ، كلٌ معه مجموعة متطوعين ، للذهاب الى طروادة والعودة بايلين ، وتم القرار على جعل أغامنون « ملك الملوك » ، وسقطت الحملة الأولى . كان اليونان يجهلون طريق طروادة ، فابحروا الى ميزيا . فالسكان في قيادة ملكهم تيليف ، بعثوهم ودخل

كل إلى مدينته . ولكن بعد ثلثاني سنوات ، تمكن أغاممنون من جمع جيش جديد تمحور في أوليس . بقي البحر مقفلاً في وجه السفن ، والريح المؤاتية لم تهب . ولدى سؤال كالشاس العراف ، أجاب ان سبب ذلك غضب أرتميس : إما لأن أغاممنون ، يوماً في رحلة صيد ، لدى قتله ظبية ، أدعى ان الآلهة نفسها ما كانت لتصطاد أفضل منه ، وإما لأن اتريه ، ذات يوم ، لم تقدم للإلهة ، النعجة الذهبية التي وجدت بين قطيعها . ومهما يكن ، كانت الإلهة تطلب أضحية . وفرضت التضحية أمام مذبحتها بايفيجيين ابنة أغاممنون . فرضي هذا الأخير وتمت الأضحية مع أن إحدى الروايات تقول إن الآلهة ، في اللحظة الأخيرة ، وضعت ظبية مكان الصبية وحملتها الى أحد معابدها في توريس حيث جعلتها كاهنتها .

وأخيراً ، تمكنت السفن من رفع المرساة ، وبلغت ترواد ، في حرب بقيت عشر سنوات ، التسع الأولى منها بطيئة ، فيما العاشرة ، انصرف اغاممنون وأشييل (تيسالي وابن بيليه من الإلهة البحرية تيتيس) الى أعمال قرصنة ضد المدن المجاورة . وتوصلا ، بين أفعالهما ، الى أخذ رهيتين : بريزيس وكريزيس ، الأولى لأشييل والثانية لأغاممنون . لكن والد الثانية كان كاهن أبولون ، فتوصل إلهه يسترد له ابنته ، فأرسل الطاعون الى معسكر القراصنة . وقال العراف كالشاس أن ذلك لتسليم كريزيس ، فقبل أغاممنون لكنه تمسك ببريزيس ، مما أغضب أشييل . فانصاع لأوامر « ملك الملوك » ، لكنه قرر الا يشترك بعدها بأي صراع . ولم تغلح نجاحات الطرواديين في المعارك ، لتحمله على العدول عن قراره ، ولا نفعت وساطات القادة . وظلّ ذلك حتى وصل الطرواديون الى الشروع بحرق سفن أعدائهم وتدميرها . ولدى هول الخطر ، جاء باتروكل ، الصديق الحميم لأشييل ، يطلب منه اذنه بأخذ مكانه في القتال . فوافق

أشيل واعطاه حتى سلاحه . وانخدع الطرواديون ظناً منهم أن المهاجم هو أشيل نفسه ، فتراجعوا ثم أعادوا الهجوم فلقى باتروكل مصرعه . فتحمس أشيل لأخذ الثأر ، فخرج وحده ودون سلاح ، فهابه المهاجمون وانحسروا . وأنقذ جثمان باتروكل ، وأقيم له مأتم حافل . عندها حملت تيتيس أسلحة جديدة الى ولدها ، وعادت المعارك . فإذا بأشيل ، الذي طرد الطرواديين وأرغمهم على التراجع خلف أسوارهم ، يجد نفسه وحيداً في مواجهة هكتور ، أشرس اولاد بريام ، والسند الحقيقي للقوة الطروادية . وفي الأولب ، وضع زوس قدر الرجلين في ميزان ، فرجحت كفة هكتور ، وأصاب سهم أشيل صدر الطروادي الذي مات وهو يتنبأ لخصمه أن سيلحق به قريباً الى الجحيم . فربط أشيل الجثمان بعربته ودار به ثلاث مرات حول المدينة . وسقطت طروادة ، وقتل أشيل بسهم من باريس (الذي يديره ابولون) ، وخلفه ابنه نيوبتوليم . وفي الوقت نفسه ، جيء بفيلوكتيت ، حامل سهام هيراكليس ، التي يجد العرافون استحالة احتلال المدينة بدونها . بعدها ، طالب اليونانيون بعظام بيلوبس ، على انها فال ضروري للانتصار . ثم متنكرأ بسمة منشق ، دخل أوليس الى المدينة المحاصرة وخطف البالاديوم (تمثال بالاس إلهة الحكمة ، وكان اليونان يعتقدون سلامة طروادة مرهونة به) . ولدى تحقيق جميع هذه الشروط ، بقي اعتماد حيلة أخيرة : تظاهر اليونان بالإنسحاب ، فابحروا جهاراً ، وتركوا على رمال الشاطئ حصاناً خشبياً كبيراً ، وراحوا فربطوا مراكبهم خلف جزيرة تينيدوس ، مقابل طروادة . وكانوا تركوا أحد قاداتهم ، سينون ، ينهزم طوعاً أمام الطرواديين ويأسره أوليس . وقبل أن يموت ، قال ان الحصان الخشبي هو هدية الإغريق الى الآلهة أثينا ، وانهم بنوه كبيراً ليحرموا الطرواديين من إدخاله الى مدينتهم ، لأنه ، اذا دخلها ، تصبح

المدينة منيعة فلا يدخلها أحد . وصدق أكثر الطرواديين هذا القول ، رغم تنبيهات لاووكون أحد كهنة أبولون . وإذا ، في اثناء تقديم إحدى الأصحيات التي يقدمها لاووكون ، خرجت حيتان من البحر ، وابتلعته مع ولديه . فلم يعد في وجه الطرواديين رأي معاكس ، فهدموا أسواره وادخلوا الحصان الخشبي الكبير الى داخل المدينة . فقام سينون وإيلين بالإشارة نفسها المتفق عليها ، فعادت السفن نحو طروادة . وهاجم الإغريق المدينة من كل جانب ، وخرج الجنود الكائنا في بطن الحصان الخشبي ، وكسروا جميع الأبواب . وبعد الانتصار ، عاد الجيش . وعاد أكثره جماعات غرقت سفنها في رأس كافاريه ، في ايوبيا ، ولم ينج من الغرق سوى بعض القادة الذين بلغوا بلدانهم ليجدوا فيها الفوضى هائلة ، فساؤهم لم تحتلمن الغياب وابرزهن كليتمنستر التي بقيت طويلاً وفيه لزوجها ، رغم تظلمها منه ، لكنها سمعت صوت ايجيست ، وعندما عاد أغاممنون كانت قررت قتله . وشدد من عزمها على ذلك ، أن وجدته يحمل معه رهيئات طرواديات ، بينهن كاساندر إحدى بنات بريام .

وفي خلال مأدبة ، قتلته بمساعدة ايجيست . وبدأ أن نسل تيبست تغلب نهائياً على نسل أتره . مع ان الجيل التالي جاء بالويل والكوارث : فأورست ، ابن أغاممنون ، خلص من الجرائم التي لحقت بجريمة أبيه . ولما بلغ سن الرشد ، تلقى من أبولون ايعازاً بالثار لأغاممنون . فاصطحب صديقه بيلاد ، وغادر الى أرغوس فقتل ايجيست وكليتمنستر . واذ هوقاقل أمه ، لاحقته الارينيات حتى راح يضل في كل اليونان . أخيراً ، وفي اثينا ، مثل أمام المحكمة ، وكان الحكم صعباً ، وانقسمت أصوات القضاة ، لكن الإلهة أثينا ، الكانت تترأس المحكمة ، ضمت صوتها الى أصوات المطالبين بالصفح ، وبرئ أورست . انما اضطر الى الابتعاد

كثيراً . وتظهره الأسطورة في توريد ، قرب أخته . وبعد ما تعرف واحدهما على الآخر ، في صورة مأساوية ، قررا العودة الى اليونان وحلما معها تمثال أرميس السحري الذي كانت كاهنته ايفجيني . وبقي أورست وقتاً طويلاً ملك أرغوس ، ويقول الرومان ان رماده موجود في عمق الكابيتول ، تحت هيكل زُحل .

وهكذا ، تغلبت سلالة أترية نهائياً على سلالة تيبست .

أبرز « العودات » على الإطلاق ، عودة أوليس . وهي موسعة التفصيل في ملحمة «الأوديسية» . ولكن ، هنا أيضاً ، تهمل الملحمة الشعرية الهوميرية عدداً من التقاليد والمقاطع وصلتنا من مكان آخر ، ومصادر أخرى .

أوليس ، من أبه لايرت ، متحدر من آيلوس ، وهو يعتبر هرمس من سلالة أمه . وثمة تقليد منفصل يقول ان أمه ، قبل ان يتزوجها لايرت ، كانت مع سيزيف ، أكثر البشردهاء . وولد أوليس في جزيرة ايتاك المحاذية لكورفو ، حيث خلف أباه حين انتقل الى جبل بعيد متخلياً عن وظائفه ومهامه في الحكم .

وكان أوليس بين الذين تقدموا لطلب يد ايلين ، لكنه سرعان ما انسحب من ذلك ، وتزوج بينيلوب ، وهي برسيديية ، ونسبية كليتمنستر وايلين . ومن هذا الزواج ، ولد طفل هوتيلياك . ولدى خطف ايلين ، اذا بأوليس - المرتبط بقسمه مع سائر المتقدمين لطلب ايلين - يضطر الى الإشتراك في الحملة ضد طروادة . وفي هذه الحملة ، كان هو المسؤول عن جميع المهمات الدقيقة في الجيش الأخي : من رسل وعمليات إستقصاء وقرصنة وحيل

حرب ، حتى الخيانة في كل بساطة ، وحتى انه ، عند اللحظة الحرجة ، في آخر الحرب ، ونسبة سلاح آشيل الى سلاح الإغريق ، مما سبب خسارة كبرى للعدو ، سئل أسرى طرواديون فأيدوا رأي أوليس . وهو الذي ، أيضاً ، خطف البالاديوم ، متسللاً الى المدينة . واليه يُنسب إيجاد الحصان الخشبي (حصان طروادة) وكل الخطة التي ادت الى الهجوم الأخير . وهو كان يأمر الطلقة بالإنطلاق من داخل الحصان ، اذ هولم يكن يخشى تعرضه للخطر ، وهو في قلب المعركة ، بطل لا يُقهر . على ان مجده الحقيقي، يبدأ لدى عودته الى ايتاك .

ذلك ان أوليس ، بعد الإبحار من طروادة ، فرقت العاصفة البحرية بينه وبين سائر السفن . وكان معه ١٢ سفينة ، فرست جميعها في تراسيا ، في بلاد السيكون . وأثناء عملية قرصنة قام بها رجاله ، تصدوا للمدينة فلم يبقوا فيها الا على مارون ، كاهن ابولون ، وهو أهداهم ١٢ جرة من النبيذ الخلو القوي . على ان هجمة مضادة من السيكونيين ، أرغمت أوليس ورفاقه على الهرب في البحر . لكن ريح الشمال قذفهم نحو سيطير ، وما هي حتى رسوا في بلاد أكلة اللوتس ، حيث كان لبعض رجاله ان يذوقوا اللوتس ويجدوه ثمرة سحرية اقتلعت عندهم كل رغبة في العودة . لكن أوليس أرغمهم عليها . ثم وصلت السفن الى بلاد الصقالبة . فنزل أوليس مع ١٢ رجل ودخلوا مغارة ، وكان معه جرة نبيذ . ووجدوا في المغارة أوعية حليب وجبنه . ولكن ، عندما دخل صاحب الأوعية ، معه قطع من الغنم ، وجده الإغريق هائل الجسم ، وذات عين واحدة مدورة في وسط جبهته . وراح ذاك الصقلوب ، واسمه بوليفيم ، يسد باب المغارة ، تمهيداً لأكل الغرباء الذين وجدهم في مغارته . فقدم له أوليس خمرأ ، فذاقه فوجده رائعاً واستزاد ، فداخ ونام عندها ، أخذ أوليس قضيباً حديدياً حمّره

على النار وفقاً به عين الصقلوب . وعند الصباح ، توصلوا الى فتح الباب
وهربوا مستترين بجلود الأغنام .

ولدى خلاصه من الصقلوب ، وصل أوليس لدى إيول ، سيد
الرياح ، الذي استقبله بحفاوة وسلمه قربة فيها جميع الرياح مضغوطة ، إلا
النسيم الذي سيحمله الى اتيك . وفي الطريق ، لمح بحارته ناراً على قمم
بلادهم ، أشعلها الرعيان ، لكن أوليس كان نام . واذا ظنوا أن في القربة
كنوز صاحبهم ، فتحوها فطارت جميع الرياح المضغوطة . عندها ، اتجهت
السفن الى الاتجاه المعاكس ، مما أوصلها في اليوم التالي لدى إيول من
جديد . لكن هذا الأخير رفض استقبال أوليس ثانية . وكان الآلهة أبدوا
رغبتهم في عدم رجوع أوليس الى وطنه . ولم يعد إيول يستطيع
مساعدته . فعاد أوليس ، حزناً ، الى البحر مجدداً . وما هي حتى رسا
لدى الليستريغونيين ، وهم من أكلة لحوم البشر . وتكسرت سفن أوليس
جميعها الا التي تقلّه . فتوجه نحو الشاطئ الايطالي وصولاً الى جزيرة آيا
(وهي رأس قمة شيرشيوا الداخل في البحر) ، في بلاد الساحرة سيرسيه .
وكان لهذه ، عادة هيلانية أن تقلب جميع زوار بلادها الاجانب الى
حيوانات . وهو هذا قدر بعض من رجال أوليس ، الذي حار كيف
يخلصهم ، فظهر له هرمس وأعطاه عشة تحميه من السحر والتعاويذ .
وبهذا السلاح ، اضطرت سيرسيه أن تعيد له رجاله ، وأمضى معها عاماً
كاملاً . وحين تركها ، كان ترك لها ولداً هوتيليفونوس (أي الذي ولد في
البعيد) .

وكانت سيرسيه نصحت صديقها الذهاب الى بلاد السيميريين لمراجعة
روح العراف تيريزياس ، وهو قائم من بين الأموات ، فأبلغ أوليس انه

سيعود الى بلاده ، وحده وفي مركب غريب عن بلاده . بعدها ، عاد ، على كتفه مجذاف ، باحثاً عن شعب يجهل الملاحة البحرية حيث يقدم تضحية لبوزييدون ، ويموت في سن متقدمة ، وسط سعادة كبيرة ، بعيداً عن البحر . فمرّ على طول صخور جنيات البحر ، وتعلق بالصاري ليصمد امام جاذبية غنائهن . وفي طريقه بين شاريبو وسكيلا ، فقد أيضاً عدة بحارة اكلتهم الحيتان ، الى أن بلغ جزيرة تريناسيا حيث كانت ترعى عجول الشمس ، وهي مقدسة ومحرم مسّها . ثمّ هذا البحر ، وكانت المؤونة انقطعت من الجزيرة . فصبر البحارة بعض الوقت ، لكنهم لم يعودوا يتحملون ، فغافلوا أوليس في غفوته واكلوا أحد العجول ، مما سبب ضياعهم . ولما عادوا ليكملوا رحلتهم البحرية ، هبت عاصفة قوية ، ونزلت صاعقة زوس عليهم فحطمت سفيتهم . ولم ينج منهم سوى أوليس الذي تمسك بإحدى قطع السفينة . وبقي متأرجحاً تسعة ايام على الموج ، الى أن وصل على الرمح الأخير الى جزيرة كاليبسو (هي على الأرجح عند الشاطئ الغربي مقابل جبل طارق) . وهناك استقبلته حورية ما لبثت أن عشقته ، وأبقتة الى جانبها عشرين سنوات . أخيراً ، وعلى وساطة من أتينا (الكانت تحمي أوليس) أرسل زوس الى جزيرة كاليبسو أمر الإفراج عنه . فابتنى أوليس عوامة ابهر بها صوب الشرق . وما كاد يقترب من بلاده ، حتى اهترضه بوزييدون يفرض عليه تجربة جديدة : هبت عاصفة بحرية كسرت عوامة أوليس ووصل على الرمح الاخير ، عارياً ، الى جزيرة الفيايين (جزيرة كورفو) ، متعباً حتى الإعياء . فنام في حرجة ذات أشجار قليلة . وأفاق على ضجة أصوات وضحكات من جمع صبايا . وكانت تلك نوزيكا (ابنة الملك السينوس) وخادماها ، وكن اتين يغسلن ثيابهن ويلعبن على ضفاف المياه . وبفضلهن ، توصل أوليس

الى بلوغ قصر الملك ، الذي استقبله في حفاوة ، وأمن له طريق العودة الى بلاده . واذا بسفينة فياسية تحمله ، وهونائم ، الى ساحل ايتاك وتترك حده جواهر كثيرة . واذا استفاق ، قرر أوليس عدم الرجوع فوراً الى القصر . فذهب أولاً الى أوميه ، قائد رعيان خنازيره ، فعرفه عن نفسه ، ووضع خطة لاستعادة السلطة . في غيابه ، جاء عدد من الجبران ، من ١٠٨ أشخاص ، واستقروا في بيته ، ملتهم ما فيه ، ومرغمين بينيلوب على إختيار أحدهم زوجاً لها . أما هي فكانت تقاوم متحججة بخياطة كفن للايرت ، وكانت تخرب في الليل ما تحيكه في النهار . ولكن حيلتها انكشفت ، وأرغمها المحتلون على الإختيار .

أما أوليس ، وبمساعدة تيليماك ، فبلغ القصر في ثياب شحاذ ، ثم تأكد من سلاحه ، وتمسك بقوسه ، وراح يرمي بسهامه جميع الشباب ، في أثناء مأدبة . وفي اليوم التالي ، اعترض أهالي الضحايا ، لكن اتينا تدخلت من جديد ، وعاد الهدوء الى ايتاك .
هذه هي الرواية الهوميرية .

لكن للمغامرة فصلاً أخرى ، ملصقة بتنبؤ تيريزياس . منها وجود أوليس في ايبيير ، في بلاد التيسبروتيين ، حيث ملكة البلاد كاليديسييه عرضت عليه ملكها إذا هو بقي بجانبها . فقبل أوليس ، وعندما ماتت ، ترك البلاد وعاد الى ايتاك . وثمة رواية أخرى عنه في ايتوليا ، قرب تواس (ابن اندرامون) وفي ايطاليا حيث قيل انه اشترك مع ابيه في تأسيس روما . وفي كلتا الحالتين ، يبدو ان التقاليد الشعبية الإيطالية تبنت مغامرات أوليس منذ زمن بعيد ، وخاصة لدى الاتروسكيين حيث حمل اسم « نانوس » الذي يعني في لغتهم : التائه .

الى جانب هذه العصور الملحمية ، بل على نقيضها تبرز مغامرات هيراكليس وفتوحاته مجتمعةً تتطابق فيه عناصر متنوعة ، بدءاً من الحكايات الفولكلورية المشابهة لما في العصور التي تحدثنا عنها (وخاصة عصر أوليس) ووصولاً الى أساطير تبحث في مسببات ذات طابع ديني . فهيراكليس هو السيد المرتبط فيه الدورون ، انما اسطورته ليست بالضرورة دورية . بل هي تنسب الى اليونان الآكية والميسانية . فمن حيث سلالته ، هيراكليس أرجسي اذ ان أمه ، « ألكمان » ، وأباه البشري انفيتريون ، هما برسيديان . لكنه لم يولد في تيرينت ، مع ان عائلته أصلها من هذه المدينة ، والأسطورة تنسبه اليها . وبعدما انفيتريون قتل عن غير قصد عمه (والد زوجته) الكتريون ، اضطر الى الفرار نحو ثيبا . وهناك ، فيما كان منشغلاً بحملة ضدّ التيليسويين ، حل زوس محلّه في غدغ « ألكمان » ، في ليلة أطول من كل ليلة ثلاث مرات ، واستولدها طفلاً . ولدى عودة انفيتريون ، استولدها هو الآخر طفلاً . وولد الطفلان معاً : هيراكليس (ابن زوس) وايفيكليس (ابن انفيتريون) .

ومن فرحته ، لم يتحفظ زوس ، فصرح مرة ، بعيد ولادة هيراكليس : ان « الطفل الذي يولد في سلالة البرسيديين ، سيحكم ارغوس » . فكان من هيرا ، حسودة ، أن أخرت ولادة الطفل ، فيما تمت ، قبل أوانها ، ولادة ابن عمه اوريسيه ، ابن ستينلوس . من هنا ان أوريسيه ولد في الشهر السابع ، فيما هيراكليس في العاشر . وظلّ هذا الأخير ، اذ هو مرتبط بحياة زوس ، خادماً لأوريسيه طوال حياته .

وحين بلغ الطفل شهره الثامن ، حاولت هيرا التخلص منه ، فأدخلت الى غرفته حيتين ، فهب الطفل في سريره وخنقهما . ونشأ هيراكليس وفق

تقاليد التربية الهيلينية (اليونانية القديمة) . وكان معلمه ، الموسيقي لينوس ، ليلقنه المبادئ الأولى . لكن التلميذ كان غير منضبط ، ومتسرعاً ، وفيما كان لينوس ذات يوم يحاول تصحيح أحد أخطائه ، تناول هيراكليس القيثارة ، وحطّم بها رأس معلمه . وقرر انفيتريون ترك ولده يربى في الحقول والجبال ، مسؤولاً عن القطعان . ولما بلغ الثامنة عشرة ، وكان أصاب قامة غير طبيعية (من أربع أذرع وقدم) ، قتل أسد سيثرون ، وكان ذلك أول أفعاله ، نفذه لرغبة الملك تسبيوس ، وخلال كل وقت مطاردته الأسد كان ينام في قصر الملك . وكانت لتسبيوس خمسون بنتاً ، تعتمد إيفاد أحدهن كل ليلة الى مخدع البطل ، حتى أنك وصار يحس بنفسه ينام كل ليلة مع البنت نفسها . ورزق خمسين ولداً ، هم التسبياديون الذين ، في ما بعد ، سيستعمرون سردينيا .

ولدى عودته من قتل الأسد ، خلّص المدينة (ثيبا) من جزية كانت فرضتها عليها مدينة أورمان . وفي المعركة ، قتل الفيتريون قرب ولده ومكافأة له ، زوّج كريبون ملك ثيبا ، ابنته البكر ، ميغارا ، من هيراكليس ، فرزقت عدة أطفال ، ما لبث والدهم ، مضروباً بمس من جنون صعقته به هيرا ، أن قتلهم جميعهم . ولما تاب الى رشده صعق من جريمته ، فتخلّى عن هيرا ، وعلى أوامر الإلهة ، وضع نفسه في خدمة أوريستيه ، التي فرضت عليه تباعاً ١٢ مهمة . كان عليه ، أولاً التخلص في نيميا من الأسد الكان يعيث هولاً ولا من يقهره . فخنقه هيراكليس بكلتا يديه وسلخه ولبس جلده ، واتخذ من رأسه خوذة . ولشدة هلعه أمر أوريستيه لدى رؤيته بقايا الأسد ، الا يدخل بعدها هيراكليس الى المدينة ، وأوعز إليه بترك غنمه عند المداخل .

بعدها ، كان عليه قتل افعوان ليرن ذي السبعة الرؤوس الكانت تعود
كلما قتلها البطل . ثمّ ساعده ابن أخيه ايولوس ، ابن ايفيكليس ، فقطع
هيراكليس جميع الرؤوس وحرّق الجلد مكانها فلم تعد تطلع .

المهمة الثالثة كانت في إعادة خنزير بري حياً ، من قمة ايريمانت .
طارده هيراكليس في الثلج ، فأنهكه ثمّ تمكن منه . وحين رأى اوريسيتيه
الحيوان ، هرع يختبئ في جرة برونزية ، عند إحدى زوايا القصر ، لشدة
خوفه .

بعدها ، انتهى أوريسيتيه الظبية المقدسة التي على قمة سيرينيا . وهي
كانت سريعة العدو ذهية القرون ، كرستها الحورية اتايحييت الى أرتميس .
فطاردها هيراكليس عاماً كاملاً دون أن يبلغها . وأخيراً جرحها بسهمه
خفيفاً فتمكن منها .

وبعد . . . حول بحيرة ستنفال ، في اركاديا ، كانت غابة كثيفة ،
التجأت اليها العصافير ذات مرة من غزوة ذئاب ، وتكاثرت في شكل
مدهش . واذ كانت تشكل خطراً على المناطق المجاورة ، أمر اوريسيتيه
هيراكليس أن يبيد تلك العصافير . ولكي يخرجها جميعها من الغابة لجأ
هيراكليس الى صناعات برونزية كانت أثينا أهدته اياها . فطرطق بها
فخرجت العصافير خائفة من الجحر ، وقتلت جميعها بالأسهم المصيبة .

كان في ايليدا ، ملك اسمه أوجياس له قطعان كثيرة . وكان كثير
الإهمال فتكاثر الروث في اصطبلاته . فكان أمر اوريسيتيه الى أوجياس ان
ينظف اصطبلات الملك ، ففعل اذ حوّل اليها مياه نهرين : الالفية
والبينية .

أما المهمات الباقية ، فتقودنا خارج بيلوبونيسوس ، وتوسع إطار
الأسطورة . منها القبض على ثور كريت ، وهو الكان خطف اورب اذ

استعار شكله زوس . وهو الكان جنّ وبات يثير خطراً في الجزيرة . فاعتقله هيراكليس وعاد الى اليونان على ظهره ، وسلّمه الى اوريسيته الذي اهداه الى هيرا فرفضته ، وأطلق الثور فعاد الى بلاد الاتيك حيث اعتقل على يد تيزيه نهائياً .

العمل الثامن ، لهيراكليس انه حمل الملك ديوميد (ملك تراس) الى حيواناته لأنه كان يغذّي انثى خيله باللحم البشري .

وكانت ادميته ، ابنة اوريسيته ، تشتتهي حيازة حزام ملكة الأمازون ، وهي قبيلة من النساء المحاربات يعشن في عمق آسيا ، وهن من الإله أريس . وكان على هيراكليس تنفيذ رغبة أدميته ، فقبلت ايوليته الملكة اعطاه الحزام ، لكن صراعاً قوياً وقع بين القبيلة ومرافقي هيراكليس ، فظنّ هذا الأخير انه تعرض لخيانة ، فقتل الملكة .

وتدريجياً ، أخضع اوريسيته خادمه هيراكليس لمهمات أقسى . فأمره بجلب ثيران جيريون ابن كريزابور وأحد أحفاد ميدوز ، وكانت له قطعان كثيرة يجرسها راعيه اوريتيون في جزيرة ايريتيا الحمراء ، في بلاد الغرب . وكانت الصعوبة في اجتياز الأوقيانوس . فطلب هيراكليس من الشمس الكأس التي لها أن تحمله كل مساء ، فيعبر الى الشرق . فرضيت الشمس ، ووصل هيراكليس الى بلاد جيريون ، فقتل أوريتيون وكلبه أورتروس وعاد قائداً أمامه القطيع ، وحول هذه العودة ، حيكت مغامرات كثيرة لتفسير دقائق محلية ، منها أن البطل عندها أقام عن ضفتي مضيق جبل طارق العمودين اللذين سمّيا لاحقاً « عمودي هرقل » . لكنه فيما كان يجتاز بلاد الليغوريين (شمال إيطاليا) ، هاجمه لصوص ، فاضطر زوس ، لتخليصه ، أن يرسل مطراً من الحجارة ما زالت حتى اليوم على أرض

الكرو (قريباً من الرون) . وأكمل هيراكليس رحلته على شواطئ البحر التيريني . وذات مساء ، وجد نفسه على ضفاف التير ، في حيثما أقيمت روما بعد زمن . فكان من لص يدعى كاكوس أن سرق منه بعضاً من قطيعه واختفاه في مغارة من جبل أفانتان . لكن هيراكليس قتله وأسس ، ذكرى لانتصاره ، المذبح الكبير لتقام عليه مراسيم عبادته . وفي نهاية رحلته ، سلم البطل القطيع الى اوريستيه الذي قدمه ذبيحة لهيرا .

بعدها ، تلقى هيراكليس أمر أن يذهب الى الجحيم ويعود بالكلب سريير ، وهو من ثلاثة رؤوس ويحرس مدخل مملكة الموتى . وبعدها تدرّب على اسرار ايلوزيس ، نزل الى العالم السفلي من باب الجحيم الذي يفتح على رأس تينار ، يقوده هرمس مرشداً ودليلاً بناء على أوامر زوس . وهناك ، التقى موتى بارزين ، منهم ميلياغر ، بطل كاليدون الكان مات حديثاً ، وطلب منه أخته ديجانير . فوعده هيراكليس أن يتزوجها حاله يعود الى عالم الأحياء . وأخيراً ، تحكم من سريير وعاد الى أرغوس . ولدى رؤية الكلب الهائل ، خاف اوريستيه ورفض تلقيه . فأعاده هيراكليس من حيث جلبه .

المهمة الثانية عشرة والأخيرة ، كانت في قطف تفاح ذهبي كانت الهسبيريدات (بنات المساء) يحرسنها في حديقة رائعة ، يساعدن تين هائل . ويوم عرس زوس وهيرا ، قدّمت له الأرض هذه الهدية ، ووجدتها الإلهة جميلة حتى أنها زرعتها في حديقتها قريباً من قمة أطلس .

بدأ هيراكليس يتحرى عن الطريق ، فعلم ان الإله البحري نيريه وحده يمكنه ارشاده ، لكنه لم يقبل في سهولة فأرغمه هيراكليس على ذلك . فاجتاز مصر حيث قتل الملك بوزيريس الكان يقتل الغرباء . ثم مرّ في

الجزيرة العربية وعاد من حيث أتى ، على كأس الشمس ، ونزل على تخوم القوقاز ، وأفاد من ذلك ليحرر بروميتيه بقتل النسر الكان يعذبه . ووفاء لذلك علمه العملاق الكبير أن عليه قطف التفاح الذهبي بواسطة أطلس . وبلغ هيراكليس أخيراً بلاد الهسبيرديات وتقدم من أطلس الكان يحمل السماء على كتفيه (وهو هذا عقاب زوس الذي طرده من الأولب مع اخوته) وعرض عليه أن يبقى مكانه فيما يذهب أطلس الى قطف التفاح الذهبي . فقبلَ هذا الأخير ، ولما عاد ، وجد أن هيراكليس كان حازماً في تبوؤ المنصب ، فلم يعد يريد استرداد منصبه . وأوهم هيراكليس أطلس انه قبل ، وطلب من هذا الأخير أن يضع له خدة تحت كتفه . فانصاع العملاق الضخم ، واذا هو يفعل ، هرب هيراكليس ، وبلغ اوربستيه فأعطاه التفاحات الذهبية فحارما يفعل بها وأعادها الى البطل الذي أهداها الى أثينا فحملتها من جديد الى الحديقة الرائعة .

الى هذه الأعمال ، قام هيراكليس بعدد من المآثر . وهو ، مع بعض رفاقه ، احتل طروادة عقاباً لحنث باليمين من ملكها لاوميدون ، فحارب سبارطة ، وبيلوس الميسيني ، وفي تيساليا ، حارب اللابيتيين لصالح الملك أيجيموس . ثم عاد الى الجحيم مرة أخرى بحثاً عن ألسنت التي وضعت بنفسها تحت لتطيل عمر زوجها أدميت . فحارب عدداً من حيوان الستور (نصف بشري والآخر حصان) ، وقتلهم . لكن أهم ايامه ، كانت الأخيرة .

فهيراكليس كان تزوج ديجانير كما كان وعد ميلياغر وعاش فترة مع كاليدون . لكن القدر شاء ان يقتل هيراكليس ، صدفة ، مواطناً من البلاد ، فنفي . وراح يحول مع زوجته وابنه الصغير هيليوس . فوصلوا الى

ضفاف نهر ايفينوس حيث يسكن الستور نيسوس ، الذي كان يقوم بدور المعدّي (قائد سفينة العبور) ، فعبر هيراكليس أولاً ، ثم ، مع عبور ديجانير ، حاول نيسوس اغتصابها ، فرماه هيراكليس بحربة ، فهمس لديجانير قبل أن يموت أنّ دمه هو شراب الحب . فصدقت ديجانير ذلك فحضنت الدم ظناً منها انها تستخدمه حين يخف حب زوجها لها . ولكن ، في حرب هيراكليس مع ملك أوكاليا ، اتخذ زوجها ، غنيمه ، ابولييه ابنة الملك . وعلمت ديجانير بذلك ، فلما طلب منها زوجها ثوباً جديداً ليقدمه تضحية لزوس على قمة أويتا ، أعطته الثوب المغمس بدم نيسوس . لكن هذا الدم لم يكن شراب الحب ، بل سماً يتغلغل في مسام الجسم ويؤله كثيراً . فاعتلى هيراكليس الجبل ورمى بنفسه فوق المحرقة التي ، اذ هي تحترق دوى رعد هائل ، وسُحب هيراكليس الى السماء ، حتى اذا بلغ مصاف الآلهة ، تصالح مع هيرا بعد إحتفال تظاهروا خلاله بإعلان ولادة البطل كما لو كان ولد من أحشاء أمه الآلهة .

وتنسب الأسطورة الى هيراكليس ستين ولداً ذكراً ، هم الهيراكليديون الذين عادوا في ما بعد إلى أرغوليد واجتاحوا البيلوبونيز وأقاموا فيه السيطرة الدورية .

ويبقى عصرتيزيه ، في بعض أحواله ، ضوء العصر هيراكليس . فتيزيه هو بطل أثينا ، ومعاصر هيراكليس ، والاثينيون يؤكدون أنه كان صديقه . وتيزيه ينتسب الى العائلة المالكة في أثينا ، وهو من أبيه ايجيه الذي يعود نسبه الى اريكته ، ومن أمه آيترا التي يعود نسبها الى بيلوبس وصولاً الى سلالة طنطال . وهو ولد في تريزين حيث أمضى سنواته الأولى . ولما بلغ سن الرشد ، ذهب الى أثينا عن طريق برزخ كورنثيا ، فيما هيراكليس -

تكفيرا عن جريمة ارتكبتها - كان خادم اونفال ملكة ليديا ، فيما الوحوش بدأوا يتكاثرون في العالم . وكان البرزخ يعج باللصوص ، فقتلهم تيزيه الواحد بعد الآخر ، وحين بلغ أثينا ، كان ايجيه في الحكم لدى الساحرة ميديا التي وعدته أن تلده له . ولم يتعرف ايجيه في البدء على ولده ، وانساق في أمر ميديا ان يقتل هذا الغريب الطارئ . واذا راح يسمم له ، عرفه فجأة ، من السيف الكان يحمله . وراحت ميديا الى المنفى .

ويروى أيضاً انها حاولت أماته بإرساله يقتل ثور ماراتون الكان حمله هيراكليس من كريت . لكن تيزيه دجن الحيوان وقدمه ضحية الى ابولون . وبعد أن تم التعرف عليه رسمياً ، تصارع مع أنسابه البالانتيديين الكانوا يطمعون بالعرش ، ثم انتقل الى كريت ليحرر بلاده من الجزية التي كان يفرضها عليها مينوس . فهذا الأخير ، إثر مقتل ابنه اندروجيه في بلاد الأتيك ، فرض على الأثينيين ، كل تسع سنوات ، إطلاق سبع صبايا وسبعة شباب . وكانت الضريبة تُرفع الى المينوتور ، (وحش نصفه إنسان والآخر ثور) ولده ثور من بازيقاييه زوجة الملك مينوس . وكان المينوتور مأسوراً في دوامة صعبة المخرج . فأبحر تيزيه على سفينة سوداء الأشعة ، مع الضحايا ، ووعد أباه ، إذا عاد منتصراً ، أن يرفع أشعة بيضاء .

وفي كريت ، أسر تيزيه في هذه الدوامة ، لكنه رآته آريان يدخلها ، وهي إحدى بنات مينوس ، علقت تيزيه ، فأعطته كبة خيطان لكي يعرف كيف يخرج من المتاهة ، واشترطت عليه أن يتزوجها لدى خروجه . وهكذا كان ، بعدما قتل الوحش ، ووصلا هو وآريان عند المساء الى جزيرة ناكسوس . فنامت آريان على رمال الشاطئ ، ولما صحت كان تيزيه رحل . ويقال أن ديونيسوس أمره بذلك ليمكنه خطف المرأة الكان يحبها .

ولحزنه من فقدانه آريان ، نسي رفع الأشرعة البيضاء ، ورأى أبوه ، من أعلى الاكروبول ، السفن عائدة بأشرعتها السوداء فظن أن ابنه قُتل ، فرمى بنفسه من أعلى صخور الشاطئ ومات .

وإذ صار تيزيه ملكاً ، جمع جميع سكان الاتيك في مدينة واحدة ، وكانوا موزعين في عدة ضياع . وأقام الاعياد الكبيرة ، وصك قطع النقود ، ونظم المدينة . وشن حرباً على قوم الامازون ، الهاجموا بلاد الأتيك ، ودعم السبعة القواد الذين يحاربون ضد ثيبا ، ودافع عن أوديب الكان التيبون يريدون ارجاعه اليهم بالقوة ، على رغبة من أحد العرافين ، وظهر تيزيه حامي العدالة والديساتير الإلهية . وما الا حادثة واحدة اظهرته أقل شأناً ، وهي عندما خطف ايلين وكانت بعد صغيرة ، وأسرها في بلاد الأتيك ، لينتظر بلوغها سن الزواج . ثم ، وبمساعدة صديقة بيريتوس ، ذهب الى الجحيم ، يخطف برسيفون الكان بيريتوس يحب الزواج منها . وهناك ، اسرها هادس ، باجلاسهما على كرسي سحرية لم يعودا يستطيعان القيام عنها . وفي النهاية ، على رجاء من هيراكليس ، ارتضى هادس اطلاق تيزيه انما ابقى بيريتوس محتجزاً .

ولدى عودته الى أثينا ، لم يلبث تيزيه أن طرده ثورة عارمة . فانسحب الى سكيروس حيث مات . وفي ما بعد ، ايام الحروب الميديه ، وجد سيمون رفاته وأقام لها في أثينا مدفناً على جمال وأبهة .

الفصل الخامس

حياة الأساطير

كلما عالجنا أسطورة اغريقية ، نجد نصوصها ذات عدد كبير من المتغيرات ، ونجدها ، حسب الصورة ، تتغير وتبدل . ذلك أن الأساطير ، من جذورها ، كانت موضوع عمل دائم لم يتوقف . انها ، اذن ، « عاشت » ، بكل ما في الحياة من تبدل وتغير وتطور مع الزمن ، ومع سيرورة الفكر القديم وصولاً الى اليوم ، دون أن تعبر دائماً عن الحقيقة الواحدة . وفي شكل عام ، يمكن القبول (مع كل ما يحمله هذا « العام » من حصر) بأن الأساطير الهيلينية (اليونانية القديمة) اجتازت - بعد فترة تغيرها - ثلاثة أزمنة مهمة : العصر الملحمي ، العصر المأساوي ، والعصر الفلسفي أو « السوفسطائي » . ولا يمكننا في أي زمن ، اسباغ كلمة « بدائي » على شكلها . فالأسطورة الاغريقية ، نجدها دائماً تهيؤاً معقداً ، كما نجد أن الفكرة عنها تكونت من زمن بعيد ، وراحت تتبدل مع الزمن .

نبدأ بالزمن الأول : العصر الملحمي .

إنّ عصرًا ملحمياً (كما رواية الحرب التي جمعت الاكيين والفريجيين في طروادة) يحوي حكماً نواة تاريخية . والمكتشفات التي وجدت في طروادة ،

تثبت أن الحضارة الطروادية حقيقة واقعة ، وثبت وجود عدة مدن متعاقبة - على قمة هيسارليك - إحداها ، على الأقل ، دمرها العنف . لكنّ هذا المعطى الأولي (صراع مدينة فريجية ضد مجتاهين من الغرب) لم يلبث أن تعقّد . بل هو تجزأ الى مجموعة تفاصيل كل منها أدى الى تضخّيات وتفسيرات عديدة . منها ، مثلاً ، أن الجيوش المعنية أحصيت ، وكلّ من مجاميعها وضع في بوتقة متوقعة ومفترضة ، وفق التقاليد الملائمة لكل مدينة افترضت أصلية . ووجود هذا الجيش يبرره نص خاص ، يعود الى عصور مختلفة الافتراضات .

المهم ، أن « العصر » في تكوينه التدريجي ، كان يصبح كمية من المعطيات تختصر فيها حالة حضارية كاملة . لكن العمل لم يتوقف عند هذا الحد . كان يلزم مبرر للحرب نفسها . فكان تخيل هذا السبب المبرر ، في خطف امرأة ، ارتؤي ان تكون هيلين ، التي تبدوانها في الأساس ، الهة من العصر قبل الهيليني (اي الوهات السحر والقمر والبحر) لكن المجتاهين الأكبين « انزلوها » الى رتبة بطلّة . وهكذا ، زُوِّدَت ايلين بأصل ونسب ، تعود معها الى الأسياذ الميسانين . وقصة زواجها من مينلاس (عبادتها كانت جد ناشطة في لاكونيا) ، تفسرانها لم تبق في ارغوليد وان حدثاً أوهى من اختطافها اقام ضد المذنب جميع الملوك والمدن . من هنا ، ولد المقطع الوارد في الخطاب الملقى قبل خطبة الصبية ، والذي يختصر كل النبل الأكبي .

على أن مسائل أخرى تبرز ، حتى قبل سياق المغامرة : لماذا ، مثلاً ، صمدت المدينة طويلاً وهي محاصرة ؟ ولماذا ، في النهاية ، دخلها المهاجمون ؟ يقال إن القدر وضع لنصرة الإغريق ظروفاً ملائمة لم

يكشفونها الا في ما بعد . هنا ، بدأت تدريجياً ، ترتسم صورة هيلينوس ، ابن بريام ، الذي رعاه ، الهياً ، أبولون نفسه ، والذي كان له في ما بعد أن يعلم الآكيين كيف الوصول الى بلاده . ولكن لهذه الخيانة العظمى تفسيرات ، أهمها أن هيلينوس خذله قومه . فبعد موت باريس ، أراد الزواج من هيلين ، لكنهم حرموه منها ليزوجوها ديفوب . فحنق ، وانسحب الى الجبل حيث قبضت عليه جماعة من الآكيين ولم يبد لهم كبير مقاومة . وفي هذا ، كما يبدو واضحاً ، عمل خيال يفترض لنفسه صعوبات يحلها مستعيناً بحلول مستمدة من الحكايات الشعبية .

هذه العناصر الشعبية ، متوفرة في كل مكان ، اي ليس في العصور البطولية فقط ، وانما كذلك في الأساطير المأخوذة للالهة . كما هرمس سارقاً ثيران أخيه جاراً اياها من أذناها ليضلل الطريق . فهذه حكاية شعبية بحتة . فالحيلة نفسها تعود في فقرة كاكوس حين يسرق لص بعض ثيران جيريون لصالح هيراكليس . وانما هذه العناصر الفولكلورية المتغيرة ، هي التي تعطي للأساطير شكلها شبه الموحد . وهذه أريان ، اذ تركها تيزيه على ضفاف ناكسوس ، تذكر بميديه التي خانها جاسون في كورنث . وكلتا البطلتين ، خلصتا ، ما سوى بالحب ، الغريب الشاب الذي أتى في صورة خصم . وهما ساعدته على ابنيهما ، لا تطلبان الا الفرار معه . وهذه أيضاً قصة كومايتو ابنة الملك بتريلاس ، التي ، من حبها لأنفيريون ، قصت عن شعر ابنيها الشعرة الذهبية الكانت تجعل عصمته ومناعته . وكذلك هي ، جرمية سكيلا ابنة نيسونس ملك ميغار ، التي أحبت مينوس . ومثلها قصة تاريا التي أسرت في روما لتاتايوس الوسيم بسر الطريق السري الى القلعة الكان يحميها أبوها .

وجميعهن ، بلا استثناء ، ينتمين الى سلسلة « حكايات المرضعات » ، التي تغذي اخبار الأساطير . وثمة أيضاً أخبار الحية أو الوحش الذي يحرس حديقة أو مغارة فيهما كنز ، كما التفاح الذهبي للهِسپيريدين ، أو الجزرة الذهبية لجدي كولشيد . وثمة أيضاً نماذج أخرى عن هذه الكنوز ، لعل أبرزها ذهب قوس قزح المختفي في البعيد ، صوب الشرق . وثمة كذلك حكايات الأطفال الذين تغذيهم الحيوانات : كما تيليف ، ابن هيراكليس وظبيته ، وأسكالبيوس ابن ابولون والبطل الشافي الذي غذته عنزة ، وسيكنوس ونعامته ، وكثيرون غيرهم ، حتى رومولوس وريموس اللذين غذتهما الذئبة في البلاط الروماني .

أكثر من هذا : القصص الشعبي ينسج بدوره أساطير ، انما دونما تفسير . فثمة دائماً ، في الأصل ، عنصر آخر تتمحور حوله تغييرات وتفسيرات . وهذه من المعطيات التاريخية التي تبرز في العصر الطروادي ، ومن المعطيات الجغرافية في عصر الارغونيين . حيث قسم كبير من رحلتهم البحرية ناجم عن رغبتهم في تفسير وجود معابد لاتينا (أولسواها من الآلهات) حول حوض البحر الأبيض المتوسط . وكذلك ، ثمة أخبار عن تجوالات اينيه في بحر ايجه وفي بحر سيسيليا ، مع معابد أفروديت المفروض أنه أسسها . و« رجوعات » عذيلة ، بنيت على مجانسات في أسماء الأماكن : فكل موقع يدعى « ترويا » (وكان منها كثير في ايطاليا) يوحى بآثار مستوطنين طرواديين ، أو أسرى حملهم القادة الآكيون ودفعتهم العواصف البحرية الى تلك الشطوط . وجاء موضوع فولكلوري - عن السفن التي حرقها الرهائن - فأكمل التفسير ، وهكذا ولدت أساطير كثيرة ذهبت أساسية ، ولم يبق على المفسر المعاصر إلا تحليل المجانسة وهي الشاهد

الوحيد على شعب قديم أو على هجرة تذكرها الأسطورة في جميع تفاصيلها .

في أمكنة أخرى ، قد تكون النواة الأصلية ، خاصة طقسية . ولافتُ أن إلهة أرغوس الكبرى كانت هيرا ، وإن اسم هيراكليس مشتق من اسمها . وهو ، حتماً ، خادم لها . وإذا كان صحيحاً أن هيرا الأرجية ، كانت في البيلبونيز الميسانية « سيدة الأطباء » ، فمن الطبيعي أن أول وأقدم مآثر البطل ، كانت مع الأياثل والأطباء ، وداخل حدود البيلبونيز . وهو هذا ، ما أمكن اكتشافه ، في النص الكهنوتي الذي اضيفت اليه عناصر أخرى ، بعضها تاريخي وثيق ، ولكن بعضها الآخر شعبي بحت .

هو هذا ، ما تمكن تسميته مرحلة ما قبل التاريخ ، في حياة الأساطير . لكن الملاحظ ، أن الوجوه الأسطورية ، منذ القدم ، اتخذت واقعاً حياً و « تأسنت » . وفي الوقت نفسه ، كانت الأسطورة في توسعها الى ملحمة او رواية ، تحمل انطباعاً عن العالم ، وتكون شكلاً خاصاً من التجربة . فإن آشيل واغامنون وهيلين ، مثلاً ، قد يكونون سابقين لفكرة العصر الطروادي الأول . لكنهم لم يقيم لهم ذكر وكيان ، إلا حين دخلوا في عمق المغامرة . وهو هنا فضل هوميرو : انه رسم لأشيل شكلاً لازمه نهائياً . فهو : محارب . وفي مطلع حياته ، خُبر بين حياة طويلة هائلة ، أوحيا قصيرة انما بطولية . فلم يتردد في الخيار ، وكان كل كيانه في هذا الخيار . من هنا ، كان يعرف انه سيموت شاباً ، لكنه كان يعرف قيمة ذاته ، وأنه مرصود على الخلود . واذ بعنفوانه وحسّه بما « يتوجب له » ، يدفعه الى الثورة في وجه أغامنون ، والى أن يعرض للخطر ، حين يرفض المحاربة ، كل الجيش الاغريقي . وان كان على قوة ، فهو أيضاً على حنو الشباب وما يحمله على

نسيان الالهانة : رغبته في الانتقام لباتروكل . وبدون شفقة ، شتم جثمان هكتور ، لكنه عاد فبكى حين جاء بريام يأخذ الجثمان في احتفال مؤثر .
وقاماً كما غناه هوميير ، صار آشيل موضع إلهام لمواضيع أخرى في كل العصور القديمة ، يستلهم مثاله كثيرون كما الإسكندر وقيصر اللذان كان أمام ناظريهما حتى انهما كانا يريان خيراً على قبره اكراماً له .

مع أن القصائد الهوميرية ، والملحمة عنده في شكل عام ، تهتم بسيرة الحدث أكثر مما بنفسية الأشخاص . فهذه الأخيرة تنجم عن الحركة ، كما تنجم النسب وطبيعة كل إلهة ، عن مقاطع نجدها فيها تنصرف بأي عمل . ولا يمكن ان نجرد هؤلاء الأشخاص عن الخرافة أو الأسطورة ، لنجدهم يعيشون وحدهم . من هنا ، نادراً ما كان الشاعر يحمل حكماً واعظاً . وهو لا يشترك في الصراع ، ولا يقضه إلا اجاكس ابن أويلييه ، محقر الآلهة ، الذي مات في رأس كافاريه ، واللعنة في فمه . أما أوليس فهو مقبول دون تحفظ . وحيله الماكرة وخياناته وأكاذيبه ، لا تطغى على مآثره العسكرية ، فكلال الوجهين لديه ، شرعي مقبول . وما الا لاحقاً ، مع ظهور السوفسطائية (حوالى ق ٦ ق . م .) حتى بدأت تُطرح هذه المواضيع . عندها صار الأبطال الأسطوريون يخضعون لنقد معنوي وخلقى . وعندها صار يمكن التساؤل ان كان أوليس على حق في التسبب - استناداً إلى وشايات وشهادات كاذبة - بموت بالاميد لأن هذا الأخير عاكسه في الاشتراك بحرب طروادة . هكذا ، تصبح الأساطير هائلاً للنماذج والأمثال ، ويكون للسوفسطائي بروديكوس أن يتصور حكمته في هيراكليس ، إذ يصوره ، على مشارف مراقبته ، متخيراً الشراً الخير .

هكذا ، تصبح الأسطورة - بشكلها روايات ملحمة - الوسيلة الفضلى

لتنشئة الخلقية . وفي مدارس اليونان القديمة ، كان الأولاد منذ سنواتهم الأولى يحفظون غيباً قصائد هوميرو التي يختار منها المعلم حكماً وعبراً سلوكية . وبهذا ، بقي هوميرو لأجيال عديدة متعاقبة ، « معلم الفكر » الأساسي . وحاول أفلاطون كسر هذا التقليد وهذه الطرائق التربوية ، معتبراً أن الأسطورة والشعراء يفسدون الفكر . لذلك طرد الشعراء من مدينته المثلى ، لأن الحقائق التي يحملونها لا تخضع لحكم العقل والمنطق ، بل تتوجه إلى العواطف والقلب . لكن حملة أفلاطون لم تنجح ، وبقي الشعراء على أهميتهم وبقيت قراءتهم مدخلا إلى الأساطير ، والتمرين الأول الذي يلاقيه التلاميذ .

ومع ظهور المأساة ، ظهرت وجهة نظر جديدة . فالمأساة لم تعد سرداً ، بل هي نوع من التأمل والغوص في مقطع من عزل . وهذا التأمل ، بدأ غنائياً ، فكانت القريبى بين المدح التقريظي ، والمأساة ، والغنائية الترنيمية . ولكن ، لو كانت الملحمة منشدة كلياً إلى الحركة فالغنائية تنحو في الأساس إلى الجمود . وهو هذا ما يميز المأساة الأشيلية المهمة : « بروميتيه مؤثوقاً » . فالثلاثية كلها ، انطباع واضح - ونكاد نقول تمجيداً - حول سر زوس . وفي مقابل الرؤية الهيزيودية (الكانت تظهر زوس مجتاحاً وبروميتيه مهزوماً ، كما هزم التيتانيون وسائر القوى الأولية في العالم) يقيم أشيل رؤية المصالحة . فانتصار زوس ليس نهائياً ان لم يتوصل إلى إعادة الحق لأصحابه ، والا بقي الثالث بعد أورانوس وكرونوس ، ويواجه التهديد نفسه .

فالمسألة التي طرحها أشيل ، هي ، اذن ، لاهوتية بحثة . وهي في اكتشاف ظروف استمرارية زوس . واذا بكل ثلاثيته ، تدور حول مأساة

التوسط . فكما ان بروميتيه هو الوسيط بين هذه القوى الأولية والبشر - حين
حل لهم نار السماء - صار كذلك الوسيط بين هذه القوى نفسها وجيل
الأولبيين ، حين يخبر زوس بعراف غايا الذي انبأه بأن الولد الذي سيولد
من تيتيس ، سيكون له يوماً أن يخلف أباه ، مما احاد الإله عن التفكير
بوحدة تضبط سير القدر . بهذا ، أمكن زوس أن يخرج كرونوس والتيتانيين
من سجن الترتار ، ووضعهم في جنة الصالحين ، أو في جزر السعداء
حيث وجدوا مملكة ذات كون مرفه .

من هنا ، نجد ان الصراعات الكونية المريرة في العصور التيوغونية
الأولى ، حيث كانت الغلبة للقوة الفظة ، انما تنتمي الى عصر كامل .
فالإنطباع الإنساني « يؤنسن » الآلهة . وتصبح الأسطورة مع أشيل -
وكذلك مع بندار - التعبير الأقوى عن الأمل والمثال . وليس علينا التساؤل
اذا كان أشيل يؤمن ، أم لا ، بالوهية زوس وصراعاته بل وحتى وجوده
نفسه . التساؤل هنا لا قيمة له . فالأسطورة تخلق جواً شعرياً ، ومعطى
يقولب وفق الهوى ، ووفق الحقيقة المعيشة داخلياً . فهذا هيزيود - وهو
من عصر بروميتيه نفسه - كانت له قصة يائسة . فبروميتيه ، في نظر
هيزيود ، كان فصل الانسان عن الإله . وكان حل الى الكون نوعاً من
« الخطيئة الأصلية » ، وقصم الوضع الإنساني من أساسه . أما اشيل ،
فعلى العكس ، هو المنقذ الأبدي ، والثلاثية التي له ، كأنما هي الإنجيل .

هذا كله ، عن الزمن الأول : العصر الملحمي .

نصل الآن الى الزمن الثاني : العصر المأساوي .

ان مؤلفي المآسي - في حلهم الى المسرح مقاطع من العصور البطولية -

واجهوا مشاكل مشابهة . فالشاعر الملحمي ، إذ تحمله نشوة النص ، يغيب عن الوقائع الحقيقية التاريخية . وهو يتقبل مواقف ، حين تبرز في الواقع مع أشخاصها ، تبدو ولا تتبدل . من هنا ما أسداه العصر المهرقلي الى « الإلياذة » ، في صورة فيلوكتيت ، ابن بوياس ملك ماليش ، وهو كان خدم هيراكليس باشعال محرقة على قمة أويتا . مكافأة له ، تلقى القوس والأسهم الإلهية ، وكان هو خلف هيراكليس ، ووريثه الصوفي . ولكن ، في الجزء الثاني من « الإلياذة » نجد فيلوكتيت بين القادة المجتمعين في « الأوليس » ، إذ كان أبحر مع الاتريدين ورفاقهم ، انما ، لدى وصوله الى جزيرة كريزيه ، جارة ليمنوس ، حيث كان على القادة الأكيين تقديم تضحية ، لسعته حية . والتهب الجرح وتسمم مسبباً لفيلوكتيت اوجاعاً ذات صراخات مرعبة وتنن رهيب . وصار فيلوكتيت عبئاً خطراً على الجيش الأكي ، حتى تم التخلي عنه بناء على نصيحة أوليس . انما - يضيف هوميرو - بقيت ذكرى فيلوكتيت في بال الأكيين . لذلك ، كان تنبؤ العراف هيلينوس أن شرط القدر لانتصار الأكيين ، هو في امتلاك جيوش هيراكليس . والشعراء الملحميون الذين مجدوا السنوات الأخيرة من الحرب ، كما ليشيس واركينوس ، كانوا يروون ان ديوميذ ذهب باحثاً عن فيلوكتيت ، حتى وجده بدون صعوبة ، وأعادته فيما كان أوليس يعود الى سكيروس ومنها الى ترواد ، مع نيبتوليم ابن أشيل ، وكان حضوره ضرورياً كما جيوش هيراكليس . وكان يمكن للملحمة ألا ترى في ذلك أية صعوبة . انما ، منطقياً ، كيف يمكن فيلوكتيت ، بعدما تخلى عنه الأكيون بلا شفقة ، وتركوه في جزيرة شبه قفراء ، وتفرق عنه رفاقه في السلاح ، أن يتقبل العرض في الرجوع الى مساعدتهم للتغلب في معركة هم أول المستفيدين منها ؟ ألا يمكن له أن يرفض ؟ انه ، والحالة هذه ، يصبح شاهداً على

موقف خاسر من الأكين ، وولدت المأساة من كون القدر وضع مصير الجيش كله في يد الذي تخلى عنه يوماً هذا الجيش . ومن النص الملحمي القديم ، يولد نزاع غير متظر ، نزاع النفوس والإرادات .

كل هذا ، فهمه المؤلفون المسرحيون جيداً ، (وثلاثتهم : أشيل وسوفوكل وأوريبيد كتب كل منهم مأساة حول فيلوكتيت) ، حتى أنهم اختاروا أوليس ليقدم الى البطل التأس الآتريدين . وهكذا وقف الخصمان وجهاً لوجه : المسؤول عن التخلي ، وضحية هذا التخلي .

وكل من أولئك الشعراء عالج الموضوع على طريقة تفكيره وعبقريته الشعرية : فاشيل لم يكثرث لواقعية التفاصيل ، وأوريبيد تخيل وصول بعثة الى طروادة في الوقت نفسه ، وحمله خياله الى تصوير صراع يواجه أوليس والطرواديين ، يحكم فيه فيلوكتيت . أما سوفوكل ، فحمل الحركة الى صعيد آخر ، في إدخاله شخصية نيوبتوليم ، ليعطي زخم المأساة قوياً ، من خلال روح هذا الشاب الجدير ببنة أشيل ، المشبع بالاستقامة والشرف . وهكذا ، من داخل الوطنية والشرف والشهامة ، يحافظ فيلوكتيت على سلاحه ، لولم يظهر هيراكليس ليعطي رفيقه القديم الأمر بالعودة الى طروادة ليكتمل ما جاء في حكم القدر .

ونجد ، هكذا ، كيف مأساة سوفوكل (الوحيدة التي وصلتنا كاملة) ، هي ، أيضاً ، « انست » الأسطورة ، ومن هذه الزاوية ، هي تشكل مثلاً جيداً لهذا التحول الذي أوحده المؤلفون المسرحيون في رواياتهم الأسطورية .

لذلك ، من الخطأ الاعتقاد ان المعطيات التقليدية ليست سوى مدخل

للتعبير الفلسفي ، أو للتوجيه الخلفي . فالأساطير المأساوية ، حتى على المسرح ، تبقي ، من جذورها ، على مناخ العظمة الدينية التي من مميزات المأساة . ومهما تأنس البطل المأساوي ، وشارك في عواطف وآلام البشرية العادية ، فإنما هو يتحرك في عالم منفرد حيث كل شيء أقوى وأرهب و« نموذجي » . هكذا ، لا يعود أوديب ، فقط نموذج الجليل الملعون ، ومجرد حلقة في سلسلة المصائب التي تضرب أحفاد لايبوس ، بل يصبح الصورة الخالدة للضحية البريئة تحت ضربات القدر فأوديب هو مأساة الإرادة العاجزة أمام نظام الكون الذي يسحقها . لكنه ، في الوقت نفسه ، نموذج ما يكونه التمزق الداخلي ، فلما حرم نفسه طوعياً من الحكم وحب الأقرباء وحتى نعمة البصر ، وترك بلاده ، كان يجد في وحدته حضور انتيغون ، ويرى - في عمق عتمته - السلام والهدوء مع الآلهة . وهكذا ، هو الملعون وبليّة ثيبا ، يصبح ، في كولونا ، بطلاً حامياً وفاضلاً ، وتصبح له فضائل العذاب ، والاذعان للإرادة الإلهية ، اعمق وأخصب من جميع الثورات . وللتعبير عن ذلك ، اضطر سوفوكل الى تبديل المعطيات الأسطورية ، واستبدال مقطع بآخر ، أو تعبير بآخر ، حول هذه التجربة الوحيدة التي خاضها . معه ، اتخذت الأسطورة شكلاً ، ومن الطين غير الثابت الذي قدمته له التقاليد ، استطاع خلق أوديب خالد .

هذا العمل الأدبي ، (خاصة الخلفي أو على الأصح الإنساني) كان من نتيجته أن تعدلت الاساطير تعديلاً كاملاً . فثمة اشخاص كانوا مطمورين ، ظهوروا بارزين فجأة . هذه ، مثلاً ، إيفيجيني ، وهي في الملحمة مجرد ضحية في أوليس ، تكتسي مع المؤلفين المسرحيين ، أهمية جديدة . فيتمحور حولها عصر كامل ، عناصره مستمدة من التقاليد الشعبية (الفولكلورية) أو الثقافية . من هنا نراها في توريدا ثم في بيلوبونيز .

حيث حضورها يبرر الطقوس المتوحشة لدى الإلهة ارتيمس السبارطية ، في
لاتيوم ، ثم في غابة نيمي حيث هي كاهنة « ديانا » الغابات .

إذن ، فتاريخ الأساطير لا يظهر تطوراً مستمراً ، اذ لكل اسطورة
جذورها ، ومحطتها الملحمية ودرجتها المأساوية وعادة درجتها الفلسفية أو
السوفسطائية . بل هي ، على العكس ، تعكس تأثيراً مستمراً لكل شكل
على الشكل الآخر . فالأهمية الكبرى التي ، مثلاً ، للعصر الطروادي هي
التي أمنت الاستمرار والخلود للتقاليد المحلية المنسوبة الى هيلين وأورست
وديوميد واينه وسواهم . وهذا التصوير ينطبق خصوصاً على الأشكال التي
اتخذتها هذه الأساطير في ايطاليا ، جنوبيها خصوصاً ، حيث نجد آثار
البطل الطروادي دون تلمس كيفية وصول بصاته الى هناك . وربما هذا
الحضور يشهد أحياناً على هجرة أو استعمار قديمين ، وغالباً ما يكون مجرد
تجانس وهضم من التقليد المحلي الذي تناغم مع العصر الطروادي الأشهر
والأعظم .

بهذه الطريقة ، امتدت الأساطير الهيلينية البدائية الى كل قطاع الأبيض
المتوسط ، حتى حدود العالم المعروف . وساعدتها طواعيتها على الانزراع
في اينيا كان . فالأغريق بلغوا حتى ايجاد تفسير أسطوري للآلهة الحيوانات
المعبودة في مصر . كان ذلك ، أيام كان طيفسون يلاحق زوس ، وكل
الأولبيين خانوا (إلا أثينا) والتجأوا الى رمال الصحراء في مصر العليا .
وتأميناً لهم على حياتهم ، اتخذوا أشكال حيوانات . فصار هرمس كلباً ،
وابولون طائراً مائياً . . . ودخلت أسطورة ايتريس تدريجياً في أسطورة غرام
إيو وزوس . فبعدما صارت إيو على شكل عجلة ، التجأت الى ضفاف
النيل حيث عبدت على هذا الشكل ، ويروى ان اينها ايبافوس ، هو في

أساس السلالة الملكية المصرية ، مع نيلوس النهر الإله ، وفي أساس سلالة داناوس ، مجتاح بيلوبونيز ، في أساس سلالة قدموس وسائر ملوك سورية .

تدريجياً ، وخاصة بعد غزوات الإسكندر ، وبعد قيام الامبراطورية الرومانية ، اتخذ الفكر الأسطوري والديني في العالم القديم ، أشكالاً فرضها كتاب الأساطير الهيلينيون . فليس في منابع اللاتينية ، مثلاً ، أو اليونانية ، الخطوط الكبرى للدين الغولي أو الجرمني ، إلا تحت قناع الميتولوجيا الكلاسيكية . وفي روما نفسها ، كان جهد المؤرخين المعاصرين ، تجريد الآلهة والأساطير من وشاحها الهيليني ، وإيجاد كيانات أولية أبعد من الخلق المصطنع ذي التأثير الاغريقي .

فبعد الزمن الأول (العصر الملحمي) ، والزمن الثاني (العصر المأساوي) ، نصل الآن الى الزمن الثالث : وهو العصر الفلسفي أو « السوفسطائي » .

فبعد القرن الثالث (ق . م .) ، حين طغت الفلسفة تدريجياً على الفكر اليوناني ، لم تنجُ الأساطير من هذا « الطغيان » . وكان الفكر السوفسطائي استخدمها قبل قرنين . ثم عاد فالتجأ الى محاكاتها ، انما في اطار مختلف . فالرواقيون ، مثلاً ، يستوحونها حول طبيعة العالم . وهم يرون الأسطورة ما سوى شكل متطور ورمزي للحقائق العقلانية . وزوس لم يعد المجتاح ولا قاهر التيتانيين ، بل صار معهم المبدأ المجرد للعقل ، المحرك الأول والغاية النهائية والكائن في ذاته ، ولم تعد المقاطع الأسطورية في عصره معتبرة الا على انها الأوقات الجدلية للمصير الشامل وكما ان الفكر الرواقي ينحو للوصول الى مفهوم توحيدى ، يتخذ زوس مكانة متصاعدة الأهمية ، على حساب باقي الآلهة .

وهنا تظهر اشتقاقات لفظية مترفة لتساعد الفلاسفة فإذا زوس هو النور ، تكون هيرا هي الهواء ، ويفسر العلم الرواقي كيف ان وحدة النور « اي النار الهيولانية » مع الهواء تولّد الحياة . ففي نظر الرواقيين ، تبدو الميتولوجيا حجماً هائلاً من الرموز ، على الفلاسفة حلّها .

وفي هذا ، كانت الفلسفة تلتقي العقائد الصوفية التي ، هي أيضاً ، حاولت انتزاع حقيقة خفية من قلب الأساطير . فهيكل المقابر في العصر الروماني ، تمثل غالباً - الى جانب رسم الميت - أشكال جنيات أو إلهات وحي ، أو مثلاً صورة انديميون ، الراعي الذي عشقته سيلينيه غيمة القمر ، وأغفته في رقاد أبدي .

جميع هذه الأشكال ، تجسد الأيمان بقدر مستقبلي . فربات الوحي يرمزن الى تناغم الكون الذي يعيش فيه السعداء . والجنات يرمزن الى النشيد الالهي والموسيقى التي يولدها . بهذا ، تبعد في البال أسطورة «الأوديسية» القديمة . فالخوريات ، من عصافير مؤذية ، تحولن رسولات الأمل . وأضيفت معتقدات فلكية الى الموضوع الأسطوري التقليدي . واذا بأنديميون يذكرونا أنّ القمر هو رحلة النفوس التي تحررت من الجسد . ومغامرته هي رمز السعادة الأروع التي تصيب انساناً فتحمله ، فوق عذاب الموت ، وتضعه هائلاً في النعمة الأبدية .

على أن التفسيرات الرمزية أو الأسطورية لا تستنفد حياة الأساطير في ما سوى الحضارة الهيلينية الغاربة . فثمة عقول شكاكة ، أقل تأثراً بجمال هذه النصوص ، تأثرت خاصة بتدخل الظواهر فوق الطبيعية ، دائماً ، في الأساطير . وكان أصحاب هذه العقول يتساءلون - في نية طيبة - كيف يمكن

حدوث هذه الأحداث المجنونة . لذا ، تخيلوا ان هذه الأساطير هي روايات محوَّرة لأحداث عادية حدثت فعلاً . فمثلاً : جاء في الأساطير ان بيرسيه خطف الصبية اندروماك بقتله الوحش الذي كان يرصدها . افلا يمكن ان تكون هذه ، قصة شاب أنقذ حبيبته ، في لحظة كان القراصنة سيخطفونها على الشاطئ ؟ فيكون عندها اسم المركب « الوحش » ، او « الحوت » ، وهو هذا ما يكون ولَّد رواية هذه الأسطورة . أو مثلاً : جاء في الأساطير أن هيراكليس خنق أفعوان ليرن ذا الرؤوس التي تنبت . ويمكن أن تكون هذه ، رواية بطل كلِّف بتجفيف مستنقع وبائي (تاريخياً كان ثمة مستنقع قرب ليرن) ، وكان عمله بغير فائدة لأن ينابيع صغيرة كثيرة كانت تصب في المستنقع باستمرار ، فلا يجف .

باليفاتوس ، وهو كاتب مجهول ، ترك بحثاً مطولاً في أمر هذه التفسيرات العقلانية للأساطير . وهي طبعاً ، لعبة عقلية . فالأساطير ، قطعاً ، لم تولد على هذا الشكل . وانه تحقير لأهميتها ، في اعتبارها مجرد تحويل لروايات من الواقع . ولكن ، يبقى ، ان هذا هو موقف العقلانيين وفلاسفة القرن الثامن عشر . وثمة كتاب فونتيل « تاريخ العرافين » ، الذي لا يختلف منطق التفكير فيه عن نَفَس باليفاتوس .

الى كل هذا ، قام منحى آخر في أواخر القرن الرابع (قبل المسيح) . وذلك مع فيلسوف يدعى ايفيمير ، كتب في تلك الحقبة رواية طويلة جاءت موحية للطبيعة الحقيقية لدى الآلهة والأبطال . وهو رأى أن الموضوع ، عن بشريين تألهوا ، وخاصة عن ملوك فاضلين حلهم اتباعهم الى هذه المرتبة . وكان همّ ايفيمير ، كما باليفاتوس ، « عقلنة » الأساطير بتجربدها من هالتها الجميلة . ولاقت هذه النظرية نجاحاً كبيراً .

فالإبيقوريون الذين ، مثلاً ، كانوا ينكرون تدخل الآلهة في الشؤون البشرية ، وجدوا في الأساطير مادة لتفسيرات خلقية . وكان تريبتيوليم أول « حاصد للغلل » استحق المجد الأبدي لهذه الغاية . وكان هيفايستوس الحداد الأول . وصار الكون الأسطوري محجماً الى النسب البشرية ، وغاب الجميل المدهش عن العالم . وكان هذا الموقف مغرياً حتى أنه في غير موقف ، بات حقيقة ثابتة . فالأسطورة نفسها تعترف أن اغامنون كان حكم ميسان ، وكان في أرغوليد ، فعلاً ، نط عبادة اغامنون . وكان غط آخر في سبارطة لعبادة مينيلاس ، وآخر لعبادة هيلين . من هنا أن النظرية الإيفيميرية كانت نوعاً من تعميم واقع حادث وثابت . ولم يكن مطروحاً سؤال إن كان الواقع ذاك ، يُقرأ في نظرة أخرى ، وإن لم يكن غط العبادة المسبق ، هو الذي ولّد البطل في ما بعد ، وإن لم يكن هذا البطل حصيلة وحلة بين شيطان وشخص تاريخي . وكان يكفي أن تكون المظاهر في صالح الموضوع المطروح . وكان من نتيجة هذا الطرح محو كل الدين الوثني .

وكانت هذه ، نعمة لم يكن ينتظرها الكتاب المسيحيون الذين تبناها في رضى ، وجهدوا كي يبرهنوا أن الآلهة - حتى في اعتراف الوثنيين أنفسهم - ليسوا سوى محتالين وغاصبين .

من هنا أن الجهد الكبير في عقلنة الأساطير - بعد تفريغها من مادتها الحية - جرّدها من كل مبرر وجود . وبهذا كانت الإيفيميرية ، رغم كل اغراءاتها ، عملية نفى قاطع للفكر الأسطوري .

الفصل السادس

الأساطير ازاء العلم الحديث

بعد تجريدها من هالة الحقيقة الموحاة ، لا تعود الأساطير تطرح أية مشكلة فكرية . انما يبقى السؤال : هذه النصوص « !لاعقلانية » كيف وجدت لها طريقاً الى معتقدات الناس ، وأكثر : أوجدت شغلاً لمخيلتهم ؟ والواقع ان الأقدمين أنفسهم طرحوا أيضاً هذا السؤال ، محاولين البحث عن تفسير للأساطير . لكن تفسيراتهم تبقى بغير أهمية . ولا يمكن ، اليوم ، الاعتقاد - على صعيد الفكر العلمي - بأن الآلهة الوثنيين اختراع شيطاني لعقول خبيثة ، هي نفسها التي ، على ذمة مؤرخي بلوتارك ، كانت تبكي « موت الإله بان » حين ، خلال حكم أوغست ، حلت القوانين الجديدة مكان القديمة . ومن جهة أخرى : الاقرار (كما فلاسفة القرن الثامن عشر في الغرب) ان في وسع المخيلة البشرية افراز هذيان كثير حين هي ليست تحت سلطة العقل والمنطق ، هو رفض للمسألة ككل ، وانكار ومضة الجنون المهاذي الذي هو واقع يحتاج بدوره الى تفسير . وما سوى في القرن التاسع عشر ، حتى بدأت الميتولوجيا القديمة تستحوذ على الدراسة الجدية ، على انها موضوع معرفة وتحليل .

وجاء التجديد في صورة ساذجة وان هي أحدثت ثورة في الطريقة

المنهجية ، اعتمدتها اليوم منهجيات عديدة . ويعود الفضل في تفسير الأساطير الى الألسني ماكس مولر الذي اخرجها من حجرها التقليدي الضيق ، بعدما كان درس القصائد السنسكريتية ، وظنّ أنه وجد ، في اقدم الآداب الهندية ، (الفيدا) الأشكال الأولى للمعتقدات والأساطير ، وبدا له أن الآلهة كانوا في الأصل اسماء معطاة لقوى طبيعية . وهو تخيل أن « البشر الأولين » ، اذ صعقتهم ظواهر الطبيعة ، بدأوا يعطونها أسماء انتقلت تدريجياً الى أشخاص ، على اعتبار الفكر البدائي عاجز عن تشخيص المجردات . وهكذا صارت الحياة الكونية تكتسب حياة .

وحاول ماكس مولر أن يعطي ، في بعض تفصيل ، أمثلة عن هذا المبدأ : فكما نور الشمس هو ينبوع كل حياة ونشاط ، أعطي للنظام الشمسي ككل ، طابع أهمية قصوى . لذا ، يرى ان صراع زوس (وفي اسمه معنى النهار) ضد التيتانيين ، ليس سوى الصراع اليومي بين النور والظل ، وانتصار الأول على الثاني . والأشكال الهائلة للعالمقة ، ترمز الى ضباب الليل ذي الامتداد اللامتناهي . ثمّ : طيفون هو العاصفة ، واثنين (وهي متحدرة من زوس) هي الضوء العذراء للفجر . وهيفايستوس هو الحداد الذي يفتح جمجمة زوس ، ليس سوى وهج الشمس الطالع ، الشبيه باسطوانة الحديد المحمر من الضرب الإلهي . وهكذا ، يصبح هيراكليس ، بدوره ، « اسطورة شمسية » . والأعمال الاثنا عشرهم الاثنتا عشرة إشارة للفلك البرجي ، والاثنتا عشرة مرحلة للدورة السنوية التي تقوم بها الأفلاك . وهكذا ، تدريجياً بواسطة تأويلات غير ثابتة ، صارت الميتولوجيا كلها مجرد تأملات في الطقس وتغيرات المناخ .

طبعاً ، أفكار ماكس مولر هي أبسط بكثير ، وتبين اليوم ان الأساطير

وخاصة العصور الأسطورية ، لا تتأتى عن مرض لغوي . وبدا ان التفسيرات الرمزية التي تطبق الأساطير على الظواهر الفلكية أو ظواهر الطقس ، ليست بهذه البدائية ، بل هي ناجمة عن تأملات متأخرة . فهذا ، مثلاً ، جانوس ، الإله الروماني ، لم يعتبر رمزاً للسنّة ، الا تحت تأثير بيتاغوريي روما ، مع القرن الأول الميلادي ، فيما هذا الإله وأساطيره أقدم من ذلك بكثير . وفي الديانة المصرية ، يبدو ان اسطورة أوزيريس وإيزيس (الأسطورة الشمسية المعروفة) ، ليست بدائية ، بل تختصر لاهوتاً كاملاً مولوداً من التفكير الكهنوتي . فلهذه الأسباب جميعها ، (ولغيرها كذلك كما مثلاً عدم دقة تأويلات مولر اللغوية ، والعودة الى مرجع أدق حول مكانة اللغة والقصائد السنسكريتية في تاريخ الشعوب الهندو-أوروبية ، وإلى تحليل أدق للفكر البشري والمجتمعي حيث لم تحبُ الظاهرة الأسطورية بعد) ، يمكن التخلي عن النظرية الألسنية لتفسير الأساطير ، دون انكار فضلها ، ولا فضل ماكس مولر الذي اخرج الصراع عن دائرة الميثولوجيا الكلاسيكية ، الى مقابلة مع قطاعات أخرى ، وبين أهمية الألفاظ واللغة عموماً في تكوين هذه الأساطير .

وتأتي أعمال مانهارت وفريزر ، فتعرف تفسيرات الأساطير مرحلة جديدة . والطريقة : ايغال ولادة الأساطير في الحاضر وتحت المجهر . ويكفي ، لهذا ، التوجه الى المجتمعات التي حافظت على طاقة خلق الأساطير وما تزال تخلق حتى اليوم . بهذا ، ولدت طريقة المقارنة المنهجية ، مرتكزة على فرضية أن مراحل الفكر البشري متشابهة ، أي أن الشعب وأياً كان العنصر . فالأسطورة الاغريقية أو الرومانية يمكن تفسيرها على ضوء الأسطورة البولينية أو البانطوية . وكلتاها تتجاوب وفرضيات

عميقة في الفكر البشري . مثلاً : الايمان بالخلود ورفض الموت ، عاملان يراهما فرايزر من خصائص الإنسان . فالبدائي ، يرى الموت حادثاً طارئاً لا مفر منه ، وهو ناجم عن تدخل قوة شريرة . وحول هذا الموضوع ، قامت طقوس ، أهدافها تنمية القوى الحيوية وكبح النفوس المنافسة . ولتطبيق نظرياته ، استعمل فرايزر طريقة ممارسة لاتينية : كان في نيميا - قرب روما - غابة مقدسة تحت سلطة الإله ديانا . وكان كاهن المعبد يسمى « ملك الغابة » وجد فرايزر في ملك الغابة صورة جوبيتر « إله الرعد والسنديان » وإذا قُتل في ميتة عنيفة ، فعن شك في الشيخوخة والمرض أو العجز الجسدي ، مما لا يُضعف لديه الفكر الحيوي ولا يقتل الطبيعة كلها . فالكاهن المختصّب - الذي يثبت عجزه اذ يواجهه شاب أقوى منه وأصغر سناً - يشكل خطراً كبيراً للجميع . وتدرجياً ، برهن فرايزر أن النصوص الأسطورية تحتفظ بأثر من الممارسة الواقعية ، ولو جاءت مطابقة لامتحانات ملوك أو لتضحيات بشرية (كما تقطيع الملك ليسورغ وفق أوامر ديونيسوس ، أو كما عقاب استيداميا التي جزئت قطعاً نُثرت في كل مدينة ايولكوس) ، أو مطابقة حتى لولائم اكل لحوم البشر . كما في اسطورة تبيست وبيلوبس . وجميع أساطير الأطفال تجد ماثلة لها في أميركا أو افريقيا ، حيث المولود الأول محرّم ومحلل لـ « الأكل » ، وإذا لم يقتل أو يؤكل فهو يعرض حياة والده للخطر ، وإذا كان هذا الأخير ملك قبيلة يعرض الطفل غير المأكول حياة القبيلة كلها للخطر . وهي هذه ، نواة أولى لروايات اسطورية كثيرة ، وهذه ممارسة زال مدلوها وتعذلت وتبدلت (ونحن نعلم ان الشعوب البدائية تفسر دائماً تقاليدها بأن « الأقدمين كانوا يتصرفون هكذا ») ، انما تركت بصمات جماعية على شكل أسطورة . وقصة أوديب خير استشهاد على ذلك : فهو مولود على عكس ارادة

العراف ، وحُكم عليه ان يموت . لكنه أنقذ صدفة ، وصار يشكل خطراً لا على أبيه فقط وهو قتله ، بل على كل مدينة ثيبا التي جلب لها ، بوجوده فيها ، جميع أنواع النكبات . ويجد فرايزر للتضحيات باكير الأولاد في العائلات الملكية ، تفسيراً لتاريخ فريكسوس وهيليّه اللذين يجعلهم الشعراء الاغريق في أصل عصر الاغونيين : فإنّ الجوع استبد في إحدى مقاطعات تيساليا ، ولم يكن ممكناً انهاؤه الا في التضحية بولدي الملك أتاماس . لكن هذين ، وهما فريكسوس وأخته هيليّه ، تمكنا من الهرب بفضل الحمل ذي الحزّة الذهبية . انما ، لاحقاً ، جُنّ أتاماس فقتل ولده ليارك الذي كان أنجبه من زواج آخر ، فيما زوجته قتلت ولدهما الثاني ميليسرت اذ قذفت به وبفسها الى اللجة . وعهدئذ ، كانت العادات أن بين ابناء أتاماس ، ممنوع على بكرهم دخول مسكن القضاة في المدينة تحت طائلة عقوبة الموت . وتتوافق جميع هذه الوقائع : فأسطورة اتاماس ، والتهديدات الراصدة كل بكر من أحفاده ، تشير حتماً ، في تلك المقاطعة التيسالية ، الى وجود طقس خاص للقرايين موجود في ميادين أخرى .

وهكذا ، تبدو اليونان انها ليست شواذاً على تاريخ الفكر البشري ، وانها تخضع للقانون العام .

وهذه نتيجة مهمة : فالأساطير اليونانية ليست ، منذ نشأتها ، افرازات معجزات مجهولة . والتنقيبات التي أجراها الباحثون بعد فرايزر ، حول العادات الشعبية ، والطقوس ، ليس لدى الشعوب البدائية فقط بل ضمن استمراريتهم وأشكالهم المتطورة لدى البلدان الأكثر تحضراً وتمدناً في الظاهر ، بيّنت مواضيع كبرى تمحورت حولها الأساطير أجمالاً : كما طقوس « العبور » من طبقة اجتماعية الى أخرى ، طقوس التدريب ،

والطقوس الجنائزية ، وطقوس استدرار المطر ، وطقوس السحر المخضب وسواها . وبهذه الطريقة ، يمكننا التوصل الى عدد من الأطر ، أو المعادلات التي توصلنا الى تحديد أصناف الأساطير . وفي هذا التصنيف ، حتماً ، تطور وشرح حقيقي . مع طريقة المقارنة ليست كافية في ما هي عليه . فهي مبنية على تقاربات متعددة بين ميادين مختلفة ، وقد يبرز عند المؤلفين نوع من التحذلق في البحث عن مقابلات مماثلة في مجتمعات متباعدة مكاناً وزماناً . مع ان من الطبيعي ، كون المشابهات الملموسة تبقى خارجية وغير فعالة . فالعمود ذو الوجهين في جزيرة سورينام ، لا ينبثنا عن طبيعة الروماني جانوس وعصره . وفي كلتا الحالتين ، المقصود شخص ذو وجهين ، أو تشخيص شخص ذي وجهين متضادين . ولكن ، كيف الوصول الى ما بعد ذلك ؟ ان المواضيع الشعبية المستقاة من هذه المنابع ، وفي عموميتها الشاملة ، ليست سوى صورة أو شكل مبهم ، لا يبرز من خلاله واقع الأسطورة الاغريقية . والتذكير ، مثلاً ، بأن الألباز المطروحة من السفنكس على أوديب تنتمي الى صنف معروف من التجارب المطروحة أمام الملك قبل تسلمه الملك ، يمثل تطوراً هائلاً ، انما هو لا يفيدنا في شيء لفهم ما يمكن للمغامرة نفسها ان تعني لليونان . وعلى الحاح البحث عن العموميات في التفسير ، نفقد الجوهرى ، وهو الطابع المتفرد والشخصي لكل أسطورة .

ربما لذلك ، قامت قبل سنوات ، طريقة جديدة سميت « مقارنة » ، انما مختلفة عما لدى فرايزر ومانهارت ، مما يدعى « الطريقة السوسبيولوجية » . والمثل الأبرز لهذه المدرسة في فرنسا هو دوميزيل الذي ضوأت اعماله ، في غير ميدان ، على الأساطير والميتولوجيا الكلاسيكية . وتجد هذه الطريقة ان

المقارنة لا يجب أن تقوم دون تمييز بين الميادين المختلفة ، كما ، مثلاً ، استنتاج ان أسطورة لابونية متأثرة بأسطورة يونانية قديمة أو رومانية . بل يجب أولاً ، لاستحصا لقيمة علمية ، الانحصار في داخل القطا الهندو-أوروبي ، اي ان المقاربات تثبتق بين حضارات ذات قرابة متصلة بالدراسة الألسنية . من هنا يمكننا ، مع بعض التحفظ ، ان نستنتج من « الفيدا » ، هذا الامر ، في ربطها بالأساطير الغالية أو الجرمانية ، لأن جميع هذه الشعوب تتكلم لغات متقاربة ، متحدرة من اللغة الهندو-أوروبية المشتركة ، في تاريخ قديم سابق ، وميتولوجيا كل لغة تكون ثمرة انطلاقة تبدأ من مجموعة معتقدات وطقوس ، على العالم ايجادها ، في ما هو أبعد من المتغيرات الاقليمية .

تطبيقات تلك الطريقة ، غالباً ما كانت مقنعة ، ونتائجها فعالة . وهكذا بين دوميزيل ، في أحد أوائل كتبه ، أن جميع القطاعات الهندو-أوروبية كانت تملك بصمات تقاليد عريقة حول تحضير واستهلاك « دواء للخلود » . واندرجت هذه التقاليد في عصور « طعام الالهة » كما ورد في قصائد الفيدا ، وفي « افسسا » الفرس ، وفي « تيوغونيا » الاغريق الهيزيودية . وهكذا كانت « جرة » باندور ، الشكل الهيليني لحوض المياه الكبير ، الذي تعرفه الروايات الجرمانية للعصر . وثمرت في كل مقاطعة ، المعطيات الأولى ، وتبدلت وتغيرت ، وفق طابعها الخاص ، لكنها بقيت ، في النهاية ، طقوساً وطرائق تفكير من الميدان الهندو-أوروبي المشترك ، المتواجد خلال جميع المتغيرات .

وتوغل دوميزيل أكثر في أبحاثه ، ليبرهن أن هذه المعتقدات الرومانية (الموازية لعبادة جوبيتير أو حكاية هوراس المزعومة أو حكاية الملك

سرفيوس) لم يكن لها من تفسير الا بعد إدخال عوامل اجتماعية عليها ،
سابقة لولادة المدينة نفسها أو الشعب اليوناني . وهذه ، مثلاً أسطورة
هوراس تصلنا في حبكة حول طقس خاص ، وتجارب فرضت على المحارب
الشباب المقبول الى بلوغ الطبقة التي تناسب سنه .

مع هذا ، رغم نجاحاتها الثابتة ، وجدت هذه الطريقة صعوبات في
تفسير الأساطير الهيلينية (اليونانية القديمة) . فالمشابهات ، هنا ، متباعدة
وغامضة ، كما لو ان عوامل خارجية جاءت تعكر استمرارها المنساق .
ويبدو أن التقاليد الهندية الأوروبية غير كافية لظهار جميع العناصر التي
تحتويها الأساطير الاغريقية . وثمة محاولات كثيرة جرت منذ القدم في
حوض بحر ايجيه ، كي لا تكون النتيجة مجرد استنتاج معقد قد يكون
أساسه غريباً هو الآخر عن الميدان الهندو- أوروبي . ولمرات عديدة ،
أشرنا في هذا الكتاب الى جذور ايجيه أو ما قبل اليونانية القديمة ، لمعتقد أو
آخر ، كما لبطل أو لآخر . والبلدان السامية كان لها هي الأخرى تأثيرها في
سواها ، إلا مصر . والأمـر حول هذا شائك جداً : فهيراكليس له طبائع
أكية ، لكنه أثر من خلالها في البطل الأسبوي جلجامش ، وكذلك في
الطريقة المقارنة الجديدة التي ، اذ تُستنفذ الى آخرها ، يُحْثَى أن تفقد تفرد
الأسطورة . وكما جميع المحاولات لتحديد التفاصيل في تاريخ التطور
التاريخي ، هكذا الافتراضات المبنية على وقائع غير أكيدة ، وغير معروفة ،
بل مُفترضة ، لا تستطيع أن تقدم الا صورة باهتة ودون يقين ملموس .

أخيراً . . . حتى الفلاسفة والسيكولوجيون المعاصرون شاركوا في
العمل على الاساطير . ورأى بعض العلماء النفسانيين أن الأسطورة افضل
مرشح للرموز والاعلاء النفسية . وبهذا ، تصبح الميتولوجيا شبه وعي

للسعوب القديمة ، ترسم فيه آماهم ورهبتهم وكل ما كان يرفضه وعيهم .
والواقع أن في الأساطير مغامرات لا أخلاقية ، وخيانات وجرائم ، كما
وجدنا أتباع فرويد وتلاميذه . ولا يهم اذا كانت هذه المغامرات سابقة
لرمن قيام الشرائع التي تحرم تلك المغامرات . وهي تنبىء عن النفس البشرية
التي اتخذت أجساماً لها الاحلام والكوابيس .

وكان للعلم النفساني ، من حافظ مهم ، ان احتوى الأساطير فوهبها
حياة وديمومة عصرية للأساطير القديمة . فبواسطته ، صارت أساطير كثيرة
خالدة : عقدة أوديب مثلاً ، أو عقدة الكترا . صحيح أن الخيانة في
الحب ، أو حقد الأم ، أو حقد الأب أو الرغبة أو الشهوة ، جميعها واردة
في المواضيع الأسطورية القديمة ، انما ، هي كما في كل ضمير بشري ،
وتحت شكل سري .

ومن هذا المنظار ، تتخذ الأساطير قيمة خاصة ، اذ تحمل مواقع محددة ،
ومواقف روحية مؤسلة . فثمة تجربة انتيغون ، وتجربة أوريسست اللتان
تدخل فيهما تجاربنا الخاصة ، لأن التجربة ليست جديدة . وهو هذا ، ما
فعله اشيل إذ استعار أسطورة بروميثيه ، كان يجهل حقاً ان هذا الأخير هو
من تناسخت عصر امبروازيا ، لذلك حوّر وجهه من أصله ، الى وجهة
منقذ تبقى مآثره على التاريخ .

المراجع

- P. DECHARME, *Mythologie de la Grèce antique*, Paris, 6^e éd., 1930.
- L. GERNET et A. BOULANGER, *Le génie grec dans la religion*, Paris, 1932.
- G. MÉAUTIS, *Les aspects ignorés de la religion grecque*, Paris, 1925.
- M. P. NILSSON, *The Mycenaean Origin of Greek Mythology*, Oxford, 1932.
- M. P. NILSSON, *Geschichte der griechischen Religion*, Munich, 1941.
- P.-M. SCHUHL, *La formation de la pensée grecque*, Paris, 1934.
- L. RADERMACHER, *Mythos und Sage bei den Griechen*, 1938.
- L. PRELLER, C. ROBERT, *Griechische Mythologie*, Leipzig, 1887-1926.
- H. J. ROSE, *Handbook of Greek Mythology*, Londres, 2^e éd., 1933 (trad. allemande par A. E. BERVE-GLAUNING, Munich, 1955).
- P. GRIMAL, *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris, 3^e éd., 1963.
- W. K. C. GUTHRIE, *The Greeks and their Gods*, Londres, 1950.
- A. BRELICH, *Gli eroi greci. Un problema storico-religioso*, Rome, 1958.
- F. BUFFIÈRE, *Les mythes d'Homère et la pensée grecque*, Paris, 1956.
- A. VAN GENNEP, *La formation des légendes*, Paris, 1910.
- M. GRANT, *Myths of the Greeks and Romans*, Londres, s. d. (1962).
- Cl. RAMNOUX, *La Nuit et les enfants de la Nuit de la tradition grecque*, Paris, 1959.
- A. SEVERYNS, *Les dieux d'Homère*, Paris, 1966.

فهرست

مقدمة . .	الاسطورة في فكر قدامى اليونان	٥
الفصل الأول :	الاساطير والميثولوجيا	١١
الفصل الثاني :	الاساطير الشيوغونية الكبرى	٢٢
الفصل الثالث :	عصر الاولمبيين	٣٨
الفصل الرابع :	العصور البطولية الكبرى	٦٠
الفصل الخامس :	حياة الاساطير	٩٢
الفصل السادس :	الاساطير ازاء العلم الحديث	١٠٨

Pierre GRIMAL

Professeur à la Sorbonne

LA MYTHOLOGIE GRECQUE

Traduction Arabe
de
Henri ZOGHAIB

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

جميع الشعوب ، في فترة من تاريخها ، احسّت بالحاجة الى تفسير الكون . واليونان كذلك ، كما سواهم ، انطلقاً من مبدأ محرك في داخل الذات ، ظنوا انهم وجدوا التفسير في الحب فقالوا انه ، في البدء ، كانت نيكس (إلهة الليل) . ومعها اخوها ايريب ، وهما وجهها الظلمة في العالم . . .

نيكس في الأعالي وايريب في الجحيم . وهما ، معاً ، جوهرا ن يتعايشان في حضن السديم الأكبر . . .

ولكن ، تدريجياً ، راحت نيكس واخوها ايريب ينفصلان عن السديم . ولدى نزول ايريب ، حرراخته نيكس التي تجوفت فصارت كرة كبيرة في الفلك ، ما لبث نصفها ان انفصلا كما بيضة تنشق نصفين ليخرج منها الصوص . يومها ، فعلا ، كانت ولادة ايروس (إله

الحب) . واذا بنصفي البيضة يصيران : وا-

الفضاء والآخر اسطوانياً مسطحاً كَوْن الأرض

وهكذا اكتسبت الأرض والفضاء واقعاً مادياً

الحب قوة طبيعتها روحية ، وصار هو الذي يؤم

الكون الناشئ . ومن انحناء الفضاء على ا

ومجماعها ، بدأت السلالات الالهية .